جدلية الـــذات والوطن

قـــــراءة تحليليـــــة فـــي ديـــــوان

" النـــوارس تحـــكي غربتهـــا "

د ./ الســـــيد محمـــد علي الســـيد

قسم اللغـــة العربيـــة كلية الآداب بقنـــــا

جامعـــــة جنـــوب الـــــوادي

٢٠٠٣م

جدليـــة الـــذات والوطن
قـــراءة تحليلية في ديـــوان
" النـــــوارس تحكى غربتهـــا "(*)

يضم ديـــوان " النوارس تحكى غربتها " لمحمد أبو الفضل بـــدران تسعا وعشرين قصيدة ، كتبها الشاعر في الفترة من عام ١٩٨٧ إلى عـــام ١٩٩٠، وكتبت معظمها خارج الوطن (بون- باريس- نيويورك) .

تتحرك الذات في قصائد الديوان في مسارات متعـــددة مكونة شـبكة متنوعة ومعقدة من العلاقات بينها وبين الواقع المحيط بها ، وبينها وبيـــن العالم الخارجي ، وبينها وبين نفسها .ولم تقتصر علاقة الذات على العـــالم وأشيائه المادية ، بل امتدت إلى عناصر الكون المجردة كالزمن الذي يمثـــل جزءاً جوهرياً من شواغل الذات الفكرية باعتباره " أهـــم مفتـــاح لـــتركيب الشخصية وبنائها ولهوية الذات "(١)

وتسعي الذات من خلال هذه العلاقات المتعددة والمتنوعة إلى تـــأكيد وجودها في الحاضر ، ورغبتها في تغيير الواقع المحيط بها ، والكشف عـــن موقفها من الآخر وسلوكه ، واستعادة هويتها المفقودة ، وتحديد مكانتـــــها في المستقبل . ونتيجة لازدياد وعى الذات الشاعرة بنفسها وبما حولها مـــن جهة ، وإخفاقها في تحقيق طموحاتها ورغباتها من جهة أخرى ســـيطرت السلبية على هذه العلاقات ، وازدادت هموم الذات وأحزانها ، وملأ اليـــأس أرجاءها.

ولم تجد الذات سبيلاً للخلاص من هذه الـــهموم والأحـــزان ســـوى توطيد علاقتها بالذات الإلهية ، فاصطنعت لها معراجـــا ســـماويا ، بعـــد أن تجردت من أوشابها التي أثقلتها وحجبت عن بصيرتها حقيقـــــة الوجـــود . وأيقنت أنها المصدر الوحيد للمعرفة الروحيـــــة الحقيقيـــة التـــي تبصرهـــا بطريقها الصحيح في الحياة . وكان الشعر هو الشريك المخلص للذات فـــي هذه العلاقة الحميمة ، فهو الرفيق الوحيد لها فـــي معراجـــها الصوفـــي ، والشاهد على "فيضها الروحي "، والمرآة التي انعكست على صفحاتها أبعـــاد رؤيتها المتنوعة دون زيف أو نقص .

الـــذات والوطن :

عاينت الذات واقع الوطن المشوه ، بعد أن تفشت فيه قيم الســـلب والسقوط ، وخيمت عليه ظلال الركود والجمود ، وهوى عليه الزمن بفأســـه

الغليظة فأفقده وعيه ، وحول حركته الصاعد إلى حركة مكررة معادة كحركة أرجوحة الظل منكفئة على نفسها عود على بدء ، تتـــأرجح داخـــل دائـــرة الزمن لا تستطيع الإفلات من إساره المحكم . ومع هذا الواقع المشوه فقـــد الوطن اسمه وضاعت هويته ، وأصبح وطنا مسلوب الإرادة :

أرجوحـــة ظـــل يـــا وطني[٢]
هـــذا الزمن المتربع فوق صفافك خنزرة الأزمان
وأني أتســـاءل أي الأسمـــــاء لديك أيـــا وطني
هـــذا زمن يحيـــا فيـــه الناس بـــلا أسمـــاء
فاخـــتر اسمـــك
واحفـــر اسمـــك
لا تســـلم كفـــك للغيـــر فقـــد تصبح يومـــا
وتصافـــح أحـــدا .. لا تبصـــر كفـــك
فاخـــتر اسمـــك
لا تتـــرك قومـــك يختـــارونـــه
فسيفنـــى جســـدك وسيبقـــى اسمـــك
فلماذا تفنى " أنت " ويبقى ما اختاروه؟!

وتكشف الذات في حوارها الأحادي الجانب الذي يتجه فيه الخطـــاب من الذات إلى الوطن عن علاقتها الحميمة بالوطن ووقوفـــها إلـــى جانبـــه ليجتاز محنته ، ويتجاوز واقعة بكل إنكساراته المحزنة ، ويســـتعيد هويتـــه المفقودة ، ويسترد مكانته الضائعة . ويجئ هذا الحوار الداخلـــي النفســـي فيما يشبه العتاب الناصح ، وسيلة شعرية[٣] مؤثرة لاستثارة حمية الوطن ، وإيقاظ روح العزة في نفوس أبنائه . كما تنكر الذات على الوطـــن ســـلبيته وغفلتـــه ، وتحذره ألا يسلم قيادته لمزيفي الشـــعارات أو لمـــن يتـــاجرون باسمه ، كما تحثه على تحقيق وجوده ، واسترداد حريته المسلوبة :

لا تتـــرك ظلك يمشي خلفـــك[٤]
قـــد تخطو يوما يعتدل الظل ، ليسلم رأسك للسياف ،
فقطّع رأس الظل وكـــوّن منهـــا مقصلة للسيـــاف
هذا زمن يتواري فيه الرجل بظل النملة كي يبحث
عن وطن مفقود عن وطن كـــان ينـــام بطيـــات ملابســـنـــا
هذا زمن يولد فيه الطير بلا أجنحة ليعيش عبيـــد الأرض
وهذا زمن تقرأ بالعين اليمنى حرفا تبصره باليسرى حرفين
تصحوكـــي تبصـــر وجهـــك في المـــرآة فتلمح وجهيـــن
فتحسس وجهـــك كـــل صبـــاح

وتأكد أنك تمشي فوق اثنين
وتأكد أنك - يا وطني - حيُ
أو أنك بين البين ؟!

وإزاء سلبية الوطن وعجزه عن تحقيق وجوده واسترداد حريته ، تضطرب العلاقة بين الذات والوطن ، ويعتريها الفتور والصدود ، ولكن سرعان ما تتبدد هذه المشاعر أمام تجدد الثقة في قدرة الوطن على اجتياز هذه المحنة وانبعاثه من جديد . ويصبح ذلك حافزاً للذات المغتربة كي تتواصل مع الوطن ، حيث تتمنى أن تغدو طيراً يحلق فوق الوطن ليتطهر في نيله من أوزار الغربة ، أو نورسا يبحر نحو النيل ليصيبه الخير ، أو يحلق فوق الأزهر ليطهر روحه من الأدران التي علقت به في الغربة ، حينئذ تتخلص الذات من القلق الذي أقض مضجعها في غربتها :

الثلج المتساقط في أعماقي(٥)
ينبئ أني لا أهواك ،
لكن الحلم يسافر بين ضلوعي،يقسم أن الليل سينفض أجنحة الطير المبتلة ،
آه لو أغدو طيرا يتطهر في نيلك من أوزار الغسق الغجري ،
ومن أدران الحلم المتهالك شيبا والمتساقط فوق نيازك هذا الليل المذعور فنمن يتجلى في ذاتي
أو أبا أتجلى في النورس كي أبحر نحو النيل ، فيبتل جناحي فاكهة،
وأحلق فوق "الأزهر" كي أنفض أوزاري أو أرتاح قليلا مما حملته يداي ،
فظلي لا يعرف للنوم فؤادا مذ أغلق باب الهرم وقلبي لؤلؤة نائمة فيه

وتتوطد العلاقة بين الذات والوطن ، بحيث لا يمكن لأحدهما أن يستغني عن الآخر ، فهي كالنورس الذي مهما سافر بعيداً ، فإنه دائم البحث عن عشه ، وليس هذا العش سوى الوطن الذي يبنيه النورس / الذات الشاعرة في غربتها من الكلمات والقصائد ومن الذكريات انتظاراً للبعث الحقيقي في الوطن :

ومهما سافرت فإني ذاك النورس،من إذ تسأله عن عش فيؤلف وطنا
من أسفار التكوين ويبني من ظلي وطنا فأنام بظلي كي
أبعث يوما في وطني ؟

وتسعى الذات لتبني في غربتها وطناً متفرداً وسط كيانات حضارية متعددة ، فتلملم في ذاكرتها الحروف ، وهي تتعامل معها كذوات مستقلة لها

كياناتها الخاصة ، فهي تمثل لديها أمجاد الوطن العريقة المستقرة في أعماقها . وتحاول الذات إحياء هذه الأمجاد العريقة التي توارت عن شواطئها زمنا طويلاً .

وتجد الذات في البحث عن حرف عربي تتخذ منه حجراً لبناء صرح هذا الوطن الشامخ ، فتعثر على صوت عربي في شراييها ، فتنميه وتجعل منه لبنة قوية في هذا البناء الشامخ ، وبينما هي كذلك إذ بها تكتشف أن هناك من يتلصص عليها ، ويحاول كشف أسرارها :

الحرف الأول

هذا صوت عربي(٦)
يممت لألقي مجداً في شاطئ ذاك الصوت .
فمذ رحل الصيف ببلدتنا وتناس الناس الحلم المتراقص في أوردتي
وأنا أسأل عن صوت عربي
هذا صوت عربي مرسوم بين شراييني
آخذ وجعي مستنداً فوق جدار يوشك أن يبني
لكن عيون الصوت تسافر فيَّ وتبني منتجعا
فأسارق طرفي كي أتقمص شفتي فألثم هذا الصوت المتنامي عبر يدي
فألمسه،أتى مقتربا فوق سجاجيد الهمس وأسألها : مرحي من أي بقاع الأرض أتيت ؟
فتجيب بصوت عجمي
ماذا كنت تحدث نفسك إني لم أنطق منذ رأيتك حرفا!!

ويغلف الحزن أغاني الذات وهي واقفة على " نهر الراين " تحاول أن تجمع حروف اللغة لتصنع منها - ببراءة الصبي - بيتا / وطنا ، وفي كل مرة تبعثر أمواج الغربة العاتية ما تجمعه الذات من حروف . ولكن محاولات الذات تبوء بالفشل بعد أن اتخذت أحرف اللغة طريقها إلى الوطن تاركة إياها حرفا وحيدا غريبا بين الأحرف الغريبة :

الحرف الثاني

هاأنذا فوق"الراين"ملتحفا بالحزن . أغني في أغلفة الصمت الشكلي
أجمع شمل حروف اللغة ،
وفوق الرمل - صبيا - أبني منها بيتا
يأتيني الموج فيسرق حرفين
فأركض إثر الموج فيلقي ما قد سرق
أضمد جرح الحرفين وأرجع لكن ألفي ما قد جمعت تلاشي
إذ حفرت كل حروفي سردابا نحو النيل ، وتمضي
ألقي بالحرفين إلى الموج وأغدو حرفا !

وتلملم الذات ما تبقي في ذاكرتها من حروف لتؤلف من هيكلها اسما للمحبوبة / الوطن ، وينظمان معا حديثا عذبا لم يكتب مثله في لغة بعد . وفي إشارة إلى دلالة الخصب والنماء يتمدد هذا الحرف داخل الذات ليثمر حروفا تبعث فيها الأمل من جديد . وفي إشارة إلى حادثة موسى عليه السلام مع سحرة فرعون ودلالتها على انتصار الحق على الباطل يتحول هذا الحرف إلى حجر يلقف ما سطره سحرة الكلام من إفك وكذب في محاولة منهم لخداع الوطن وتضليل أبنائه :

الحرف الثالث

ماذا يتبقى في ذاكرتي غير حروف شتى
تتجمع كي تتلاقى وتؤلف من هيكلها اسما لحبيبي
أبصره ..
نتجاذب أطراف الحرف ، ونلعب فوق حروف الصمت ،
نؤلف حرفا لم يكتب في لغة بعد
فيمدد ذلك الحرف المخلوق وينجب في الأرض حروفا
آخذ حرفي ألقيه فيغدو حجرا يلقف ما أفكوا
لكن يرتد إلى .. !

وتحمل الذات البشارة في مستقبل قريب تتحقق فيه كل أمنيات الوطن ، وتلوم الوطن أن يكون من بين أبنائه من يخون الأمانة ويتجسس على ما تنسجه الذات من كلمات في حبه ، ويزّور ما تكتبه خوفا من "الهكسوس" / قوى البطش ، ولكن الذات تثق في قدرة الوطن على كشف هذا الزيف ومعرفة الحقيقة :

هذا وطني فاكتب ما أمليه عليك[٢]
" إن الساعة آتية لا ريب "
وإن القمر الثلجي سيغدو تفاحا كي يطعم جوع الحنطة، والأرض المثمرة
بنخل الأشواق وزيتون الحزن المتقاسم عبر حرفي
مازلت أحبك يا وطني
لكن هل مازلت كما كنت تؤلف حرفا يغدو عسسا
كي يكتب ما انسجه حبا لعيونك
يتقاسم ظلي ، يتلصص عن حلمي
ويزّور ما اكتبه خوف "الهكسوس" إذا مروا يقتلعون الأوتاد الموعودة
في الأحجار بمعبدك القدسي ، وهل مازلت عصيا أم أن الأكفان المملاة
بحرف الزيف تلاشت إذ ينخر فيها الشوق .
فتركع تلك الغربة في محرابك وتقبل أقدامك كي تعفو
إنا منتظروك .. وإنا عشاقك فاصفح !

وتدخل الذات في حضرة الوطن لتمتلئ بنفحاته النيلية وتتلبس عباءة النبوة لتؤكد رؤيتها لمستقبل علاقتها بالأب / الوطن ، فتستحضر رؤية يوسف عليه السلام التي قصها على أبيه يعقوب عليه السلام " يا أبت إني رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين " (يوسف :٤) . ولكن الذات تحوِّرها حيث ترى الشمس حروفا والقمر صوتا ونجوما وقد أضحت ظلا لقصائده وهي تسجد للوطن :-

فيا أبت : إني أبصرت الشمس حروفا والقمر تشكل صوتا ونجوما
أضحت ظلا الحروفي فوق الأعتاب سجودا لك يا وطني
فامنح جسدي في أرضك قبرا
لكن .. لا تدفن حرفي !؟

ويبرز دال السفر في قصيدة " النوارس "[٨] ليؤكد معاناة الذات في بحثها عن الحلم / الوطن بعد أن نأت بها المسافات ، وباتت في غربتها تصارع مشاعر الحنين والشوق ، ولكن الشك يساورها حول إمكانية تحقق حلمها :

لم يكن بين هذا السراب وهذا المدي
غير شوق تصارعه الذكريات
لم يكن غير قلب حزين
أبي مرة
وانجي مرة
وامتطي الأحرف الصامتات !
أيهذا الحلم يا ..
هل تري قد تكون كما ..
أم هو الليل أرخي سراديبه
واحتسي الأمنيات

وتستعيد الذات ذكرياتها مع حلمها الجميل / الوطن حينما كان يأتيها راكضا عبر الآفاق ، فيدفع عنها وحشة الغربة ، ويفجر فيها مشاعر الشوق والحنين ، ويحيي صوته جدب المدائن في النفس ويختصر المسافات البعيدة نحو الوطن ، فتلتف حوله نوارس الغربة وهي تردد أغنيات الإياب ، ولكن حينما ينقطع صوت الوطن ينتابها القلق ويساورها الشك في موته :

أبهذا الذي كنت ألقاه في الصحو يجثو
يقاوم تلك الظلال البعيدة في الأفق يركض
يستل سيفا من الظل

يهوى على ظله
ينحني ظله
يثقب السيف في القلب جمرا تلظي ،
والقاك (بين العيون اختفاء البراءة) !
فوق الشفاة تعنكب أحرفنا الداميات
كان صوتك يأتي فتلتف حولي (النوارس)
تسألني هل ترى تسمح الآن- يا سيدي- أن نكون لها جوقة الأغنيات ؟!
ويمتد صوتك نهرا يطوف المدائن ،
تطوى المرافئ عبر النوارس والكائنات !
صوتك الآن لا اسمعه
- أترى بعد الصوت
أم أن الذي كان مات ؟!!

وفي قصيدة " الأصوات والصدى[٩] " تحاول الذات من خلال تساؤلاتها أن تكشف السر عن "اختفاء الظل في الظلام" ، و"إشراق الشمس في الظلام" ، و "تداخل الظلال في الظلام" عن تماهي الذات والوطن ، حيث تتداخل ظلال الغربة التي تعاني منها الذات بالظلام الذي يعاني منه الوطن :

لماذا يختفي الظل في الظل
والشمس لا تشرق إلا في الظلام
الظلال موجودة في الظلام
حينها يلتقي الظل بالظل
والصوت في الليل عبر الصدى بارز الظل
لكنني قد رأيت الصدى لاهثا إثره
إنه راكض في البحار التي أتعبتنا المراكب .. تلك التي تبتغي مرفأ ، والمرافئ تسأل عن أبحر ، والبحار جميلة تبحث عن موجة كي تسوق المراكب نحو الوطن

ويمثل الصوت والصدى على امتداد القصيدة ثنائية متحاورة ومتصارعة في نفس الوقت ، وإذا كان الصوت الذي يأتي على وزن (المتقارب) يمثل الأمل في إدراك الحلم ، فإن الصدى الذي يجاوبه ، يمثل في نبرته الحزينة (التي تأتي على وزن الرجز) ، معاني العجز والفشل في تحقيق حلم الذات المنشود ، ويتمني الصوت الأول أن يتجلى الوطن على الذات ، في غربتها ، كما ينزل الغيث على أرض مجدبة فيحيلها إلى جنة خضراء ، ويأخذ من صدى صوت الوطن الذي يتردد في أعماقها أنشودة

للعودة ، بعد أن أضحى الوطن واحة خاوية إلا من الصدى الذي يـــرن فـــي أرجائها .

ويكشف الصوت الثاني عن تمكن الذات من الإفـــلات مـــن عيـــون العسس الليلي ، وتجولها داخل الوطن بحثا عن حلمها ، وتجاهد الذات حتى تصل إلى " مقام الدهشة " فتبني للحزن منتجعا حتى تصفو وترتقي من هـــذا المقام الصوفي إلى مقامات النبوة ، وتستحضر الذات هنا مقـــامين : الأول وهو مقام الأنس والاحتفاء بسيدنا موسى حينما ناداه ربه أن " أخلع نعليـــك إنك بالوادي المقدس طوى ، وأنا اخترتك فاستمع لما يوحي " (طـــه :١٢) . والثاني : وهو المقام الأعلى الذي أنزله الحق تعالى رسوله الكريم ﷺ فـــي ليلة المعراج عند " سدرة المنتهي " ، "ولقدرآه نزلة أخـــرى عنـــد ســـدرة المنتهي عندها جنة المأوى " (النجم :١٣،١٥).

وترتقي الذات في هذه المقامات حتى تصل إلى مقـــام " الســـدرة " وهو مقام التجلي ، وعنده تسمع الذات ما يوحي إليها من الوطن :

الصـــــوت الأول :

إلى البيت أغدو وأحمل ما قد تبقي من الروح ،
على الرياح تسوق الغمام الذي قد بنيت على ظله ربوة للديار .
طيور "الكناري" ترفرف فوق السحاب
لعـــل السحابة تُنزل من غيثها قطرة فوق بيتي
وعلى الكناري تعزف من لحنها غنوة للصغار
فأركض في داخلي نحو هذا النخيل الذي قد تطاول حتى النخاع ..
فهـــل للرياح إذا ما غدت بالغمام تسوق الظلال ؟
فيمـــا طائرا ضل : هذى بلادك تنبت في راحتيك
فخـــذ من صدى الصوت أنشودة للإياب ،
فـــإن بـــــلادك - يا صاحبي - قد غدت واحة من الصدى !!

ويجاوبه الصدى معلنـــــا عن الفراق والوحشـــة :

الصـــــدى :

مسافرون في غد عن قريتي مسافرون
هل نستطيع مرة تخبئين في العيـــون

الصـــوت الثاني :

من خبأ هاتين العينين ؟ وكيف اختفتا عن كل عيون العسس الليلـــي
وهم يسترقون السمع
وهـــاأنذا موءود فـــي عينيك

أتمشي تحت خيامك
أو أتجول بين الرئتين
وأبني منتجعا للحزن ، فذاك " مقام الدهشة "
فأخلع نعليك ، تجرد
والبس رقعة ظلي
هذى " السدرة " ،
فأسمع ما يوحي !

ويأتي صدى هذا الصوت معلنا إخفاق الذات وفشلها في بحثها عن حلمها ؛ فكلما عثرت على شيء سقط منها شيء آخر :

الصدى :

- عمن تبحث
- أبحث عن حلمي
- حلمك لن يأتي
- أبحث عن " يأتي "
- " تسقط لن "

وفي الصوت الثالث توحي عبثية الصور ، بعبثية الحلم ، حيث تطالعنا الصور التالية : (الحلم يمتطي منابت الرياح) ، (الرياح تبتاع حلمه) ، (تغدو الأصابع صدى للعيون) ، (العيون صدى للوجوه) . وكلها صور تشي بإفلات الحلم وضياعه ، تحار الذات أي الوجوه تتخذ منها قناعا كي تبصر به حلمها ، فلا تجد أمامها سوى سوق النخاسة حيث يعلو الذل هذه الوجوه ، لكنها تختار القبر قناعا لها فتمطيه ، ولكنه يسبقها ، ويختفي.

الصوت الثالث :

النخيل يسافر في القلب
مولع أنت يا ليل بالحلم ،
والحلم فوق النخيل امتطي منبتا للرياح
فتأتي الرياح لتبتاع حلمي
فتغدو الأصابع من صدي للعيون
وألفي العيون صدي للوجوه التي دثرتني
فأي الوجوه مع الرأس أحمل
يممت نحو النخاسة أبتاع وجها جديدا
وكانت شجرات تلك الرياح إلى الأرض تنمو
فادفن ما قد تبقي
أري الشوك ينبت في الوجه

جاورنـــي الشـــك .. حاورتـــه
فامتطـــي القبـــر وجهـــا
سابقنـــي .. واختفـــي
ويأتي الصـــدى مرددا معاني التشـــوه والانقســـام :
الصـــــدى :
من ذا أنـــا ؟ إنـــي صـــداك .
إنـــي هنـــا وأنـــا هنـــاك

وفي الصوت الرابع ، تتجه الذات نحو الوطـــن علَّـــها تتخـــذ مـــن الوجوه القديمة قناعا لها ، ولكن دون جدوى ، فتيمم وجهها نحو موطنـــها القديم الذي يستحوذ على الفؤاد كي تدفن فيه ما تبقي من حلمها لتجعل منـــه شاهداً على حلمها الميت :-

وأغـــدو إلى البيت أحفر في الوجه سرادب قبري
وقسمـــت وجهـــي طرائـــق شتي
وأبحرت في الصـــوت علَّ الوجوه القديمـــة تأتي
ويممت نحو البلاد التي قـــد تساقط فيهـــا الفـــؤاد
هنـــا القبـــر ، فأدفن مـــا قـــد تبقـــي
كانت رفاتـــي تنـــام

وتأتي الزلزلة وقد صارت جمجمة الذات غماما وبرقا إيذانا بقيامـــه الذات وتخلصها من أكفانها وخروجها مع غيرها من الذوات التي أخرجتـــها الزلزلة ، ولكن حينما تصطف هذه الذوات صفوفا سرعان ما يأتيها العســـس (رمز القهر) وينزلون بها أشد ألوان العذاب :

فأبصر جمجمتي غماما وبرقا
تـــزلـــــزل زلـــزالهـــا
تمـــزق أكفـــــانهـــــا
" وأخرجت الأرض أثقالها "
تسير الجماجم جنبـــا لجنب
فتغدو الجماجم صفاءصفوفا
ويـــأتي الجنـــود العسس
وما كان كان .. وما لم يكن قد يكون !!
ويأتي الصدى معلنا النهاية المأساوية لحلم الذات وقـــد تحول إلـــى صدى .
الصدى ص ... د ... ي !!

الـذات والواقـع القومي .

تجاوزت الذات في علاقاتها حدود الواقع الوطني إلى الواقع القومي العربي ، وقد رأت فيه نموذجا للتفكك والتباعد والقطيعة على الرغم من وجود مقومات الإخاء والتوحد بين أبنائه ، مما جعلها تستحضر قصة يوسف عليه السلام وأخوته وطبيعة العلاقة بينهم وبين أخيهم ، وهي علاقة ظاهرها الحب وباطنها الحقد والبغض ، وهو ما يؤكد للذات فشل كل محاولات التقارب أو التوحد بين أبناء الوطن العربي :

قالوا فررت فقلت إن الحرب فر ثم كر(١٠)
بيني وبينك فاصلة
بيني وبينك حزن دهر
ألقيتنى في الجب ثم تركتنى
وقتلتني ثنتين حين أسرت تلك القافلة
من أين نهرب والطريق الآن تبدو هاربة
حتى خطاوينا التي كانت تمازحنا
اليوم أضحت قاتله
أما الظلال فقد توارت
هي فكرة قد لا تجئ وإن أتت
فلسوف تأتي فاشلة

ويلقي الواقع السياسي بظلاله على الواقع الثقافي للأمة العربية ، حيث تجد فيه الذات واقعا ثقافيا متخلفا ، يفشل في القضاء على العزلة والتخلف الحضاري الذي تعاني منه الأمة العربية ، ويعجز عن تحقيق آمال أبنائها في نهضة حقيقية . ومن ثم تشيع علامات التعجب والاستفهام في قصائد شعرائها مجسدة مشاعر القلق والأسى على هذا الواقع المتخلف :

الآن نقتسم القصيدة يا صديقي
ليس بين الحرف فاصلة التقهقر،
ليس وسط الحرف متكأ الهروب
ها نحن نشري للقصيدة عربها
لنبيد ما قد كان
كي نلقي الذي (هو) لن يكون!
الآن أدرك ما تخبئه علامات التعجب والسؤال !؟
هي مرفأ للحزن
أو سرادب منتجع الهزيمة في الحروف !
الآن تمنحني القصيدة خدرها لأموت فيه

الآن تمنحني القصيدة حرفها لأجئ فيـــه
الآن نقتســم القصيــدة :
خذ حزنهـــا ودماءهـــــا
وأترك لصاحبك (الذي قدمات) حرفا للكفن !!

ويبكي الشاعر صديقه " حسين المزداوي " الذي أصبح دمعـــة فـــي المآقي وقصة حزينة تُحكي في كل زمان ومكان ، تشهد على انتشار الظلـــم والاستبداد ، فالطغاة ينشرون الخوف في نفوس الأحرار ، ويغرسون الفرقة بين أبناء الوطن ، ويتربصون بكل وطني مخلص ، حتى أصبحت العروبـــة شوكة في قلب كل مخلص لها ، وتهمة لكل مؤمن بها :

أواه يـــا حسيـــن
يـــا دمعـــة المآق
يا قصة الحقول في الفصول
يا همسة الفراق
الظلم في حقولنـــــا مخيم
واليأس في شفاهنا معنكب وباق
وفي العراق ألف نخلـــة
وفي الربـــاط ألف نخلة
وحاجز يصد همسها إذا اشتكت
يقتـــاد دمعهـــا لمخفر إذا بكت
يبيد حرفها إذا ما النيل راقص الفرات
معلقون في النخيـــل واحـــدا فواحـــدا
والشوك في القلوب شوكة ، فمخبـــر
وأنت يا صديقنا تقول لي : هربت ؟!

ويصيب الذات ما أصاب الواقع ، فتعجز عن الحركة وإن توهمتـــها فهي " مسافرة في وقوفها " ، ومن ثم يصبح الحديث عن الأمل ضربا مـــن العبث :

ما ينفـــع النخيـــل صمته
ما ينفع المريض صوته
فالداء في النخيل مثمر ونحن جائعون
فنبلع الثمار ، نمضغ النوى
فيثمر النوى هياكل الموات داخلي
يصارع النخيل داءه وتهرب الظلال !
مسافرون في وقوفنـــــا

فأين يا صديقنا المحال ؟!

ولا يبقي للذات الشاعرة من صديق ناصح سوى قصائده التي تحذره من عاقبة التصريح بأفكاره ، فقوى البطش تصنع له من حروفها سجنا ، وتلصق به تهما زائفة ، باسم الدين تارة ، وباسم الشعب المقهور تارة أخرى ، كما تفقد الذات الأمل في مجيء صبح تتحقق فيه الوحدة بين أجزاء الوطن بعد أن عمقت قوى الرجعية الحدود والفواصل في نفوس أبنائه حتى تصبح أقطاره ممالك لهم :

الآن تسلمني القصيدة ما تبقي من بكارتها
خبئ حروفك ، فالعساكر يفتلون حروفها سجنا
" ما أصبح الصبح "
أخذوه واغتالوه باسم الله والشعب العظيم
وصفقت كل الأيادي وهي تقطع
أو كيف للصبح الجميل بأن يجئ
والأرض ما زالت تغلفيا الحدود
وتثمر الأسلاك مملكة وسلطنة وقصر أبي لهب
والأرض مازالت حدودا ، والحدود الآن في الرئتين
والمريئ مقتسم مباح
أو كيف يأتي والنخيل الآن تذروه الرياح

ولا تجد الذات في غربتها ما يبدد وحشتها سوى الذكريات الحزينة تقتات منها وتبعثها - في ذاكراتها - وطنا تحتمي به من مخاطر الغربة، وتعينها على استعادة هويتها . وإذا كان بعد الذات عن وطنها الصغير (قفط) وإليها ينتسب الشاعر - يقضى عليها ، فإن موتها فيه يؤنسها ويبعثها من جديد :

القفطي هنالك في الغربة يقتات الذاكرة الذكلي
يبني للنيل نهيرا فوق " الراين "
يفجؤني : من ذاك القادم كي يقتلع الأشجار الموعودة في القلب؟
ومن ذاك المتسربل بالحرف ؟
فيجيب النورس : ذاك غريب قد نسي الاسم
فأسأله : هب لي اسما من عدم
وامنحني موتا من بعث
وابعث لى "آدم" إذ علمه "الله" الأسماء ؟
يقول الراين "القفطي" صديقي إن سافر يأسره الحزن وتقتله الغربة !

فأردد " القفطي " صديقي إن مات تسامره الأرض ؛ وتبعثه الكلمة !!

وتستمر الذات في تعرية الواقع العربي وكشف سلبياته ، حيث تراه نموذجاً للمهانة والذل ، فحكامه يمارسون كل ألوان البطش ولاستبداد ضد شعوبهم ، حتى سكن الحزن قلب الإنسان العربي (الجبلي) ، وقتل الخوف في داخله مشاعر الوطنية والانتماء :

أيها الجبلي الذي يسكن الحزن في قلبه منذ حين[١١]
يقتل الخوف خيمته بين عينيه
يبصرها مشنقة
تتدلى يداه إلى الأرض تحت المشنقة

وتهيب الذات بكل (جبلي) ألا يخشي الموت ، فموته أهون من موت الوطن ، وحلمه أكبر من نياشين الحكام المزيفة :

أيها الجبلي الممدد
رجلاك أعلى من عنكبوت النياشين
جسمك الآن يهتز في موته
فيخيف المقصلة
يا رياح الجبال احضنيه
تفتح الآن عينيك ،
ترسم رجلاك أنشودة النصر
ها أنا اكتب الآن وجهك حرفا جديدا.
أرسم الآن حلمك - عند احتضارك - عنقود خمر

*****

أيها الجبلي
حين يأتيك موتك
قل له :
أيها الموت مرحي ولكن
أهل ذقت - يا موت - موت الوطن ؟

وتستدعى الذات من التراث التاريخي شخصية الحجاج بن يوسف الثقفي كصورة مرفوضة للحاكم الطاغية في الواقع العربي القديم ، ولكنها تتكرر في الواقع العربي المعاصر ، وتمارس أفعالها المرفوضة ضد شعبها. وإذا كان الحجاج بن يوسف قد توعد أهل العراق في مقولته المشهورة "إني أري رؤوسا قد أينعت وحان قطافها وإني لصاحبها " . فإن الجبلي يتوعد بالانتقام من هذا الطاغية وقطف رأسه بعد أن فاض بها كيل الظلم

والاستبداد ، ويدعو الإنسان العراقي أن يمزق رأسه بالسيف الذي روته دماء من دفنوا في الرمال من الأبرياء ، وأن يشربوا نخب انتصارهم على الظلم ، وأن يكتبوا قصة الإنسان الجبلي / الإنسان العربي الذي لا يموت :

أيها الجبلي اتئد
كم يزغرد سيف " ابن يوسف " (١٢)
عند احتضارك يلقونك فوق الربي للرياح
قصة تسكن الآن جمجمة وجبل
والجماجم يدفنها الرمل
وتسقي بدم الذين يروحون لا يرجعون بدم الغجر
ينبت الدم سيقا فيمضي يمزق رأس ابن يوسف
إني أرى رأسه أينعت
وغدا حان - يا صاحبنا - قطفها
فاقطفوا ،
واشربوا نخبه ،
واكتبوا بجماجمكم قصة للجبال التي لا تموت .

وفي قصيدة " الرهان "(١٣) تجسد تفعيلة المتدارك (فاعلن) في إيقاعها الممتد حركة الجواد العربي الذي يقود خيله الساكنة ، وهي حركة بطيئة الإيقاع تأتي موازية لحركة النفس الخامدة المتشائمة التي انطفأت فيها جذوة الأمل في كسب الرهان المقام على الخيل الميتة . فالجواد وهو رمز للقائد العربي الذي يقود خيله الساكنة - وهي رمز للأمة العربية - يتجه بها إلى هوة الموت . وهو لا يملك سوى إطلاق صيحاته العنترية، ليخفي وراءها فشله في إحراز أي انتصار في أي مجال من مجالات الحياة:

إنها قصة واحدة
ما الذي يبتغيه الهوي ؟
والهوى جمرة مطفأة !
الجواد امتطى خيله الساكنة
سيد وحده
زائل غيره
وجّه الخيل في صمته
قائل من أتي سابقا ،
من أتي لاحقا
فالرهان المقام على خيله الميتة !
آه يا خيلنا

وصنعت الخيل الميتة قصة حزينة للوجود العربي الميت ، بعد أن صنعت شكيمتها بنفسها ، وغدت عاجزة عن الكلام ، فكان مصيرها أن تدفن مع شكيماتها :

تصنع الخيل في موتها قصة للوجود
ويصنع منها الشكيمة
حتى إذا جاء بعث فلن تستطيع الكلام
فالشكيمات قد قصفت حروف الشكاية
تركتنا ألسنته باحثه عن لغة .. !
تدفن الخيل جنب الشكيمة

وتستعجل الذات الزلزلة كي تبعث الخيل الميتة (الأمة العربية) من مرقدها وقد تحررت من شكيماتها وقيودها ، لتخوض الغزوة الحاسمة التي تحدد مصيرها في المستقبل :

زلزلي يا قيامتنا الآخرة
وابعثي الخيل دون الشكيمات
إنها الغزوة الحاسمة
ما الذي يبتغيه الهوى
والهوى جمرة قاتلة
مزقي لونه القرمذى
اقتلي الليلة الحاكمة
أنها قصتان :
بادئة ... خاتمة !!

الذات والآخر الأجنبي :

إذا كانت علاقة الذات بواقعها الوطني والقومي قامت على رفض بعض جوانب هذين الواقعين ، ثم سعيها نحو تغييرها ، فإن علاقتها بالآخر الأجنبي قامت على التفاعل الواعي بين ما تحمله من ثقافة شخصية وحضارية قومية ، وبين ثقافة والآخر ومنجزاته الحضارية . غير أنها لم تسلم بكل ما قدمته ثقافة الآخر الأجنبي وحضارته ، ولم تنظر إليها باعتبارها المثل الأعلى والأوحد لصيغة الحياة التي تنشدها ، كما أنها ترفض في نفس الوقت مظاهر الجمود والتخلف المترسبة في موروثها الحضاري ، والتي مازالت تمارس تسلطها على واقع الأمة .

ومن ثم أصبحت علاقة الذات بالآخر الأجنبي بمثابة المرآة التي تتجلى فيها الذات لتبصر فيها نفسها ، وتقف على حقيقة ذاتها والوعي بها، أو تجديد الوعي بها في ضوء ما يمنحه الآخر للذات من وسائل تعينها على التبصر والفهم والاستكشاف (١٤) .

وحينئذ يصبح هدف الذات من الموازنة بينها وبين الآخر هو بلورة رؤية خاصة بها تمكنها من تحقيق هويتها وتحديد مكانتها ، ففي قصيدة (الوقوف على أطلال أوروبا)(١٥) ترى الذات في "بيتهوفن" ، و " جوته " و " بريشت " رموزا للحضارة الأوربية المضيئة بما قدموه من إبداعات أدبية وفنية .

بيتهوفن :

واقف أنت كالصمت
والسحاب استراح على معطفك
يرهة
وتدلت مناقيره نحونا
والعصافير قد حلقت حولك تمثالك ،
فوق أكتافك حطت حزنها
وشدت لحنك
على أن تسمعه .
قطرة ، قطرة
واستراح المطر

جوته :

تسبيحة الغرب للرب
أقصوصة من نسيج التصوف
حين يبتل شعرك بالحرف تكتب
حين يمتاح صوتك ما قد تبقي من القول
تأتي القصيدة ناقضة شعرها
أنت زملتها

*****

حرفك الآن أغنية من ظمأ
يقرأ الناس أحزانهم في مراياك
و يبعث الناس في الأحرف الشاعرة

بريشت :

جالس تتساءل في قاعة العرض عما سيأتي !
حين يقرأ ذاك الممثل صك السكون

يعتريـنـا الأرق
حيـن تنفلت اللحظة الكاشفـة
أنت تصـرخ
يصطادك الوقت
ينبعث الآن صوتك بين الثنايـا
تعرفـه " الجوقـة " تـرقص
تأمرهـا بالسكـون
والستـار احتـرق !!

ولكنها تـرى في الوجه الآخـر لـهذه الحضـارة ملامـح القبـح والدمامة ، فتصبح باريس (مدينة الملائكة) مصدراً لدموع الحزن في عيـون أهلها :

أقسمت صديقتي [١٦]
أنهـا مدينة الملائكة
وأطرقـت
وعند ما نظـرت في عيونها
لمحت دمعتين

وفي نيويورك تصاحب الغربة الممزوجة بالخوف زائريها :

غريب أنـا
والريـاح إذا ما رأتك غريبـا تهب

وفي ميونخ ترى في المرأة العارية العاهرة وجها دميما للحضارة الأوربية :

ميونـخ
في الشارع اقتربت مني عاريـة
قالت : خمسـون
ألقيت بحافظـة نقـودي
راحـت تضحـك ، وأنـا أعـدو

وفي واشنطن يصاحب الخوف كل عربي يمر بالقرب من البيت الأبيض :

نتمشى وصديقـي قـرب البيت
ويسألني : الديك جواز السفر ؟
فأرقبـه
نتمشى ثالثنـا الصمـت؟

أما في برليـن فإنهـا تعايـن شعبـا بـلا عقيـدة :

في حانـــة شربت والمسيح رشفتيـــن
وأغمض المسيـــح
وعنـــدما لكزتـــه
أبصـــرت أنـــــه يمـــوت

ولقد تعرضت الذات الشاعرة في وطن الآخر الأجنبي ، لاغـــراءات عديدة ، ولكن ظل الوطن كان بمثابة التميمة ضد هذه الإغـــراءات . ففـــي قصيدة " مارينا "[١٧] ، تجسد لنا الذات الشاعرة من خلال أســـلوب الحـــوار الدرامي صراعها مع " مارينا " رمز الحضارة الأوربية النقدية والتي تنتـــهز لحظة غياب الوطن عن الذات بحثا عن حلمـــه ، ووقـــوع الـــذات فريســـة لمخاطر الغربة ، فتحاول إيقاع الذات في شرك غوايتها ، وتكـــاد أن تنجـــح في محاولتها لولا ظل الوطن (القيـــم الدينيـــة) الـــذي يفصـــل بينـــهما . وتستحضر الذات من خلال تناصها مع القرآن الكريم قصة يوســـف عليـــه السلام وامرأة العزيز التي راودته عن نفسه لحظة غياب العزيز ، وتهم بـــه ويهم بها " لولا أن رآها برهان ربه " (يوسف : ٢٤) :

تسألني " مارينـــا " عن وطـــني ؟
فـــأردد فـــي لكنـــة عجمـــي
– وطني أبحر منذ سنين كي يأتي بالحلم
فتفجؤني .. ومـــتي سيعـــود ؟
تتأملني : وجهك محفور بالحزن ، وتلك الأسلاك الشائكة
تسوّر عينيك ، وهذه الغربة تخلق في عينيك أنينا يهزمني
تعبث في خارطـــة الليل وتوقظنـــي من حلمي
كيف ستقضي ليلتـــك اليـــوم ؟ أصمت ـ تتحسس جســـدي
تتـــلاقي عينانـــا
تمتـــــد يدانـــا
همت شفتـــانـــا
يبعـــث ظل الوطن فننفصل
– كيف ستقضي .. ؟
يهتز الظل القابع في عيني فابتعد .

وإذا كانت ملاحقة " مارينا " للذات مستمرة ، تعبر عنـــها الأفعـــال المضارعة في دلالتها على الاستمرار فإن مقاومة الـــذات لـــهذه المحاولـــة تتساوى في قوتها مع إصرار " مارينا " ، بل وتنتصر الذات فـــي صراعـــها مستخدمه الفعل المضارع ـ أيضاً ـ في دلالته علـــى اســـتمرارية المقاومـــة

وشدتها في نفس الوقت . ومؤكدة لها أنها لا تعشق سوى "لبني" العربيـــة / الوطن التي اتخذت من دقات قلب الذات سكنا لها :

– هل مازالت " لبني " العربية في ذاكرتك تتمشى ؟
–معـــذرة " يا مارينـــــا "
لبني العربيـــــة نائمـــة فـــي أوردتي
تتـــراقص وسط شرايـــني
وتؤلف خيمتهـــا من دقـــات القلب إذا
ماذا تبغيـــن وقلبي لـــؤلـــؤة نائمـــة فـــي وطنـــي ؟

ويكشف الحوار في النهاية عن التباين الواضـــح بيـــن اهتمامـــات الذات وتكوينها الحضاري والثقافي ، وبين اهتمامات " مارينا " وتكوينـــها ، ومن ثم يفترقان :

– إني مخلـــوق من حـــزن
– الحزن صديقي نبت عربي
– هـــل تبغيـــن الحـــزن
– فقالـــت : لا !!

ويتكرر تعرض الذات لمحاولات القضاء علـــى هويتـــها ، فـــهاهي "برلين" تسعي لاستمالة الذات ، فتدعوها للهو والمتعة ، ولكـــن محاولاتـــها تبوء بالفشل :

برليـــن فاتنـــة تمشط شعرها الغجري في رئتي[١٨] ،
تكتب قصـــة المشتـــاق ، تفجـــؤنـــي :
للحـــزن رائحـــة بصـــدرك ،
أي شيء باعث للحزن في بلد يموج الفرح فيـــه ؟
وتقـــول في لغـــة الصغـــار :
" تعـــال ذاك الشـــرق فـــي عينيـــك يغتصب
لمـــاذا أنت - في برليـــن - للأحـــزان تحتطب ؟
نخيـــل الشوق في رئتيك يثمـــر صرخـــة ثكلي
فدعنـــي الآن - فـــي رئتيـــك - أغتـــرب !"
بـــرليـــن تبحـــث فـــي فـــؤادي عـــن مكان
وتعـــود غاضبـــة لتسألنـــي
عن الشـــرق الـــذي ســـرق الفـــؤاد
مـــع الزمـــان ؟

الشرق يأتي فوق خيل مدينتي نيـــلا ،
فأبحر فيـــه ، أتركهـــا

وتذكّر " برلين " الذات بحادثة هدم سورها على يد أبنائها وانتصار إرادتهم في محاولة منها لإبعاد الذات عن فكرة العودة إلى الوطـــن ، ولمـــا تفشل " برلين " في محاولتها تطلب من الـــذات أن تصطحبـــها معـــها إلـــى الشرق علّها تتطهر من أدرانها ، ولكن الذات تعتذر لـــها ، فلكـــل همومـــه وأحزانه ، ومن ثم يفترقان :

فتصـــرخ : لا
لما أنت نحو الشرق ترتحـــل ؟
وذاك الشرق في عينيك مؤود ويكتحل
مـــاذا عـــن الأســـوار فـــي برليـــن ؟
ترقص رقصـــة نشـــوى
ألمـــلم حـــزن أوطانـــي،
فتركض نحو خارطتـــي
أيا شرقي ودع حزنـــك الأبـــدي ..
أين جـــوادك العربـــي تـــردفنـــي ،
ونحـــو الشـــرق نركض
علني بالشـــرق أغتســـل
أقـــول بلوعـــة المشتـــاق : معـــذرة
أيـــا برليـــن أعشـــق فيـــك أيامـــي
ولكنـــا على الأحـــزان نفتـــرق !!

وفي قصيدة " ماذا ستكتب في قصيدتنا "[١٩] يخيم الصمت والمـــوت على واقع الذات فتفقد شهوة الإبداع ، ويفقـــد الشـــعر جاذبيتـــه ، وتـــأتي القصيدة بلا معني ؛ لأن الصمت يكتبها :

مـــاذا سنكتب في قصيدتنـــا ؟
وذاك المـــوج ملتحف بشاطئه
وهـــذا المـــوت مختبئ بميته
مـــاذا سنكتب والحروف الآن عارية بلا معنى
وحـــتى الشعر- فاتنتي- تقمص روح غانية تجئ لكي أسامرها
تجردني من ثيابي كي اضاجعها
ماذا سنكتب في قصيدتنا سوى صمت ، وفاصلة ، وصمت ؟!

وعلى الرغم من افتتان الذات بجمال " بـــاريس " إلا أنـــها دائمـــة البحث عن طيف يأخذها إلى الوطن ؛ ليعيد إليها ذكرياتها الجميلـــة لتدفـــئ الفؤاد الذي تراكمت عليه ثلوج الغربة :

" باريس " فاتنة تكحل شعرها الغجري
تلبس حلـــة المشتـــاق ،
والمشتاق يتبع ما يريـــد
أجئ لعلني يوما أري طيفا يسافر في بلادي
علني يوما أري طيرا يغرد فوق صفصاف ، وعند النخل قرب النيـل
يلقيني ترانيم العشية ،
آه يا باريس ما أقسى ثلوجك في الفؤاد تراكمت ،
وعلى مرايـــا النفـــس قـــد هتكـــت هوادجهـــا
ونامـــت في عيـــوني

ومهما باعدت الغربة بين الذات وبين الوطن ، فإن الوطن باق فـــي عروقها ينبض ، وكل ما تريده أن تسقط من ذاكراتها وذاكرة الوطـــن ذلـــك الماضي البغيض الذي يحمل أوزار القبلية البغيضة ، وآثار أنظمـــة الحكـــم المستبدة التي حكمت شعوب هذه الأمة بالسيف :

بيني وبينـــك غربـــة
ماذا هنـــالك تفعليـــن
على شواطئك الحروف توضأت
صبـــارة جئت إلى بـــاريس،لا
تتســـاقط الأوراق لا
تتســـاقط الأشجار ... لا
تتســـاقط الأرواح والجثث المؤرضة المعنكبة التي
هـــاك انقضي وزر القبيلة .
فلتبعدي عن كاهليك طقوس كاهنـــة تعربـــد في "مراكش"
صفقي بالريح ، وانسي ماضي الأحلاف من عبس وذبيـــان
فليس الماضي في عينيك غير خليفة ، ووراءه خدم وحاشية
سفـــر وحيـــد ، والهـــوامش تحتـــه ترعـــى !
وليس الماضي إلا حفنة الأرباب قـــد حكمـــت .
وتحكمـــت بالسيـــف فـــي رئـــة الهـــوى
الآن أبغـــي أن أكـــون كمـــا أشـــاء
فـــأي شـــيء تبغيـــن ؟

وتحاصر الذات في " بون " مشاعر الوحشة والوحدة ، حيث يلف الصمت كل شئ حولها ويكرر الليل نفسه ثقيلا بطيئاً ، ولا يبدد هذه المشاعر سوى " النورس " (دال التواصل) الذي اعتاد مؤانسة الذات في غربتها :

الناس في " بون " يصيدون الشوارع
والمنازل قد تزلزل صمتها
دقت كنائسهم لتقطع صمت صمتهم
وعاد الليل مثل الليل لا يمضي ويبتطيء
فيأتي النورس المعتاد يسألني وأسأله
عن الأوطان والذكري فنشرب نخب غربتنا
ونفترق !!

وترسم الذات صورة لسور برلين رمز القهر ، وكأنه طائر خرافي يسد الأفق بأجنحته وأقدامه ، ولكنه يسقط في حناجر الشعب ويتآكل أمام إرادتهم ، ويتحول إلى فراش يتطاير في الفضاء . وإذا كانت إرادة الشعب قد حولت سور " برلين " الضخم إلى "فراش" ، فإن هذا الفراش عند العرب قد تحول إلى مارد يقتل من شواربه مشانق تلتف حول رقابهم :

للسور في " برلين " أقدام وأجنحة
رأيت السور يهبط في حناجرهم
ومضغة دمهم تسرى على قدم ملوثه،
تآكل عندما وثب القتيل ليقتل السياف
عند السور كان الجن يرقص في ملاء
لم يكن صوت النحيب مسامرا قفص القتيل
ولم يكن ذاك القتيل سوى السراب
وجاء يوم يكون سورهم فراشا
والفراش الآن عند قريش يقتل من شواربه المشانق .

وإذا كانت بداية القصيدة قد غلفها الصمت والحزن ، فإن نهايتها قد سادها القهر والخوف ، لتصنع بذلك قصة الذات المؤلمة ، بل قصة الشعب العربي بأسره ، علّها تعيد للشعر قوته وتأثيره بعد أن تبلدت مشاعر أبنائه وماتت الكلمات على شفاههم ، ولم يجدوا من الأجيال الجديدة من يبصرهم بحقيقة أوضاعهم المزرية ؛ لأنهم ولدوا بدون ألسنه كأجدادهم :

هل تلك خاتمة القصيدة ؟
أو أن قصتنا ستكتب من نهايتها

ليبقي الشعـــر منتصبـا
فسوق "عكاظ" يفعر فاه ، ينتظر الحكاية
من سيحكى في قبيلتنـا ؟
والصغـار الآن - مثل جدودهم - ولدوا بدون ألسنة

الـــذات والزمـــن :-

تشكل قضية " الزمن " محوراً رئيسياً من محـاور تجربـة الـذات الشاعرة في الديوان ، فالزمن مكون جوهري في الـذات ، ولكـن طبيعتـه المتناقضة تنحل إلى أجزاء ثلاثة (الماضي والحاضر والمستقبل) ، وهـي نوع من الأبدية الممزقة الدائمة الإفلات ، ومصير الذات يتحقق فـي هـذه الأبدية المفككة ، ويرتبط بهذه الحقيقة المرعبة للزمان .

ومن هنا برزت مواجهة الذات للزمن داخلياً وخارجياً في محاولـة منها للتغلب على سطوته القاهرة ، والخلاص من قيـده ، وسـعيها الدائـم لخلق زمن خاص بها تجمع فيه أجزاءه المتفرقة في بوتقة واحدة من أجـل تحقيق التوازن مع العالم والواقع من حولها . فالزمن في قصيـدة "*بينـي وبينك يا وطني*"[٢٠] يصبح كابوساً يتربع على ضفاف الـذات والوطـن ، ويحاصرهما بقيوده الحديدية ، ويهوى عليهما بفأسـه الغليظـة فيفقدهمـا وعيهما :

أرجـوحـة ظـل يـا وطني
هذا الزمن المتربع فوق ضفافك خنزرة الأزمان
وإني أتساءل أي الأسمـاء لديـك أيـا وطنـي
هـذا زمـن يحيـا فيـه النـاس بـلا أسمـاء
فاخـتر اسمـك
وأحفر اسمـك في كفك

ويزداد قلق الذات حينما تدرك أن وجودها تتوزعه ثلاثيـة الزمـن الممزقة (الماضي والحاضر والمستقبل) . وأنها غير قادرة علـى تحديـد أبعاد هذه الأبدية الممزقة أو السيطرة عليها في عالم الأشـياء ، أو العـالم الموضوعي لها ، ويؤدي هذا الشعور إلى ما يسمي بـ " عدمية الزمـن " ، أو انفلات الوقت وضياعه والإحساس الحاد بعدم جدوى الانتظـار لأوقـات أخرى :

لا أحبـك[٢١]
ليس ذا وقت القصيـدة

إنه وقت انفلات الوقت
وقت اقتفاء الوقت للأوقات يبحث عن زمن
لا .. ليس وقتك
وقتك الآتي الذي قد جاء
هذا انعدام الوقت
فلتلعب به الساعات حيث تشاء
ولتأتي بلا وعد
فماذا في انتظار الوقت غير الوقت ؟

ومن ثم يصبح شعور الذات بانعدام الوقت وانفلاته وعدم قدرتها على تحديده أو السيطرة عليه ، ودورانها في حلقة الزمن المفرغة ، وهو ما دعاه " نيتشه " بمبدأ " العود الأبدي للشيء نفسه "[٢٢] ، معتقدا أنه لا جديد تحت الشمس ، موازيا لعجز الذات وعدم قدرتها على الخروج من واقعها المكرر العقيم .

وتسعي الذات جاهدة للخلاص من ربقة الزمن والتغلب على تفككه ، فتلجأ إلى " التذكر " أو " الذاكرة " التي تمكنها من الاتصال الروحي الفعال بالماضي باعتباره جزءا من وجودها الخاص ، أو جزءاً من وجودها الروحي ، لذا يصبح الماضي عنصراً مكونا متكاملا مع حاضرها[٢٣] . وكما لجأت الذات إلى " التذكر " أو الذاكرة للاتصال بالماضي وإدراكه ، فقد لجأت إلى " التنبؤ " كوسيلة للكشف عن المستقبل اللاموجود وإدراك أسراره . حتى يمكنها الانتصار على الحاضر الأبدي .

واعتماد الذات على التجربة الروحية التي تقوم على " التذكر " و"التنبؤ" يكشف عن عملية الخلق المستمر للذات خارج حدود الزمن في محاولة منها للتغلب على أبدية الزمان المفككة . ويتفق في نفس الوقت - مع اعتقاد الذات بأنه لا يوجد وقت مادي ، وإنما الوقت هو ما تحمله الذات في ذاكراتها ، ومن خلال عملية " التذكر " تستطيع الذات استغراق تاريخ العالم كله في أعماقها الوجودية[٢٤] .

ويصبح بحث الذات عن الزمن الضائع أو " الزمن الماضي " بحثا عن شيء ضائع ولكنه موجود داخل الإنسان . كما أن محاولة الشاعر استعادة الماضي في صورة الحاضر ليست تفسيرا للماضي وانما يمثل انتصار الذات على شر الزمان .

وتصبح محاكمة الذات للوقت الضائع الذي ترفضه صورة موازيـــة للبحث عن زمن يجتمع فيه الماضي بالحاضر ، ليضفي على الحاضر لونـــا من النضارة والبراءة ، بعد أن بدت على الحاضر قسمات العجز والعقم :

أبحـــث عنـــك في كل المرافئ
قد جئت من زمن لأنـــك لم تجيء
ليس ذا وقـــت القصيـــدة
يا أيها الوقت الذي قد ضاع لا ترجع ولا تمنح لوقتك موقتا
ليجئ في ..... ولقد (أجاء) الوقت يســأل عـــن مـــدى
لا .. لا تكن يا وقت أغنية لبحار يصارع موجـــه بعـــد أن راحـــت مراكبـــه ســـدي
واكتب لوقتـــك موعـــدا
حتـــى أفـــكر أن أجـــئ

وقد استخدم الشاعر محمد أبو الفضل بدران الفعل (أجاء) - وهـو يختلف في دلالته عن الفعل القرآني في قوله تعالى " فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة "(مريم :٢٣) بعد أن أدخل عليه حرف المضارعة ليفقـــده مـــا ضويته ، في محاولة منه لخلخلة زمن هذا الفعل الماضي في الذهن ، وخلق صورة جديدة له تمكنه من جمع الماضي والحاضر معا ، وهو جمـــع فـــي الذاكرة ، تحقيقا لاستمرارية الذات .

ومحاولة محمد أبو الفضل وصل الماضي بالحاضر تعيد إلى الذهـــن سعى الفيلسوف الفرنسي " بروست " وراء الزمن الغابر وخلقـــه المـــاضي خلقاً فنيا جديداً في الذاكرة " كوسيلة لاعادة استمرار الذات وهويتها "[٢٥].

وإذا كان الشاعر قد قام بتحرير اللغة من عبودية النحو والمنطـــق وجمودهما ليجعلها قادرة على الكشف عن حقائق الوجود ، أو " لتعطـــي - على حد تعبير (فتجنشتين) صورة عن العالم " ، فإنه استطاع مـــن خـــلال تشكيله للمفارقة بين الفعل الماضي (جئت) الذي يقرر فعل المجيء ، وبيـــن صورته المقابلة "لم تجيء" التي تقرر عدم تحققه أن يشـــكل الزمـــن الـــذي يسيطر على الذات وهو وقت " *انعدام الوقت* " مؤكداً بذلك على أن "الطريقة التي تتألف بها الكلمات في الغرض الصحيح تصور الطريقة التي تترابط بها الموضوعات في العالم " [٢٦] .

ويكشف صراع الذات مع الزمن عن عجزها عـــن الصمـــود أمـــام طغيان الزمن وقسوته ، وفشلها في تحقيق (الأبدية) التي تنشدها ، حيـــث

يتبين لها أن الزمن أقوى من الإنسان وآماله ، بل أقوى من الموت ، فالزمن يدمر كل شيء ، ولا شيء يستطيع الصمود أمام منجل الزمن" [٢٧] .

كما تأتي صورة الزمن في قصيدة " الأرواح "[٢٨] مطابقة لصورة "كرونوس" في الأسطورة اليونانية القديمة ، حيث يلتهم " كرونوس " أولاده عند ولادتهم خشية أن تتحقق النبوءة التي تقول أن أحد أولاده سوف يعزله ، و " كرونوس " هو رمز للزمن .[٢٩] الذي يلتهم حياة الإنسان ويقضى على آماله وأحلامه . وكما قيل : " إن ما يولد من رحم الزمان يبتلعه ثانية هذا الكائن الهائل ، وبدلاً من أن يكون الزمن المولد الخلاق ، يصبح الزمن الآن ، أو تصبح هذه الصفة الملازمة لاتجاه الزمان ، هداما شريرا ومكرورها . أو "لاشيء يستطيع الصمود أمام منجل الزمن"[٣٠] وهكذا تصبح صورة الرجل الحامل منجلا والحاصد القاسي في قصائد " بودلير " رمزا دالاً على كرونوس الذي التهم أولاده .[٣١]

ومن ثم يصبح تقدم الزمن الصاعد نحو الموت نوعا من طغيان الزمن ضد الذات :

تتساقط الأشجار من حولي فتذروني الرياح[٣٢]
والموت فاصله تدمدم
للقصيدة حزنها الأبدي لكن
للموت قصته الوحيدة ،
والقصائد قصة تنمو ويكتبها لنا الوقت
الوقت نصرعه ، فيصرعنا
تبقي القصيدة هكذا :
" للموت مبتدأ وموت "

ومن ثم تصبح نظرة الذات إلى الأبدية التي تبحث عنها نظرة ناقصة ، حيث أن الأبدية لا يمكن أن تعايش هذا النظام الزماني ، لذلك تظل معاناة الذات معاناة أبدية ؛ لأنها تنمو مع الزمن اللامتناهي :

كان ما بيننا قصة تصلح الآن أن تحكي
أنت حدثتني عن إياب قريب وما طلتني
أنت عانقتني عندما كنت طفلاً..وما زحتني..كانت الأرض كالأرض
لكنه الوقت ، لا .. إنه " الآن " يبحث عن " آنه " !
كان ما بيننا صهوة للرياح
خادعتك الرياح
خادعنا الموت غيرًا من خطته

يخطف الموت من مات ، يسبح في الكون ،
معــذرة أشعر أني نحــو فضائك أعلــو !!

وفي قصيدة " اليوم الأول بعد القيامة "[٣٣] " فصل غاياتـــه بـــاء " يحاول الشاعر إيقاف الزمن ليحيا في " اللازمن " ، فيجمع الزمان في بوتقة الأبدية وتبحث الذات عن وجود " لا زمني " تتخلـــص فيـــه مـــن عالمـــها الموضوعي وهو مصدر قلقها ومعاناتها ، وتبلغ في هذا الوجود اللازمنـــي حياه روحية صوفية أبدية تتحد فيها بالملكوت الأعلى ، لتعيش في حال مـــن الغبطة والسعادة (يتصاعد كل منا رأسا نحو الأعلى ليحلـــق فـــي الملكـــوت فتتلاقي الأجساد والأرواح ، وتبني منتجعا للدهشة) ، ولتحقيق ذلـــك فـــإن الشاعر يوقف الزمن ، ويجمع " الأزمان " في بوتقة " الأبد " أو " الأبديـــة " حيث تنعدم الحركة والسكون ، ويصعب الفصل بينهما ، ومـــن ثـــم تصبـــح "اللازمانية" ، أو " الأبدية " التي تحاول الذات الوصول إليها موازية للحيـــاة الصوفية أو الروحية التي تهرب إليها الذات من بطش الزمن وطغيانه :

تتـــوقف كل الأزمـــان ، ويحيـــا كل منـــا في " اللازمن " وما أحلى أن تطوى الأزمان ، فلا أمس ولا يوم ، ولا باكر ،كل الأشياء انصهرت، أما الأزمان فقـــد جمعت في بوتقـــة " الآن " ، لا تبصر شيئـــا يتحـــرك أو لا يتحرك إذا أن الحركةوقت والوقت توقف،وسكون الحركةِ موت. والموت الآن غير صريعا،يتأمل كل منا نفس الذات المتأملة ولا يلمح شيئا فنـــهرول نحو مرايـــا وضعت لنصـــدق فيها ، لكن مرايانـــــا لا تبصـــر شـــيئا ، إذ تتساوى الأشياء لديها،ولذلك حين جريت لابصر ذاتـــي انقســـمت لـــذوات شتى،نادتني إحداهن فمـــا ردت أخراي لأن الملأ تجمع من ذاتي يتســـاءل: من هـــذى الـــذات ؟ولما قـــد ود لساني أن ينطق خفت العسس المقبور . بقبـــري فأبي كفني أن يصمت ، فتناثـــر ذرات بيضـــاء ملوثة بدماء من زمن ، وأسرت أكفاني في أحزاني : هـــذا وجهـــك فأصمت ، وأعـــدت أكفاني صوت خناجرهـــا وسمعت قتيـــلا يفجؤني بالصمت ،وألفـــت بأني كنت القاتـــل والمقتـــول بـــلا أسبـــاب

التناص :

توطدت الصلة بين معظم قصائد الديوان وبيـــن بعـــض نصـــوص الموروث بكل أنواعه مولدة نوعا من " التوتر " أو الفضاء الشعري أو مـــا يسمي بـــ " التناص " . والتناص كما يعرفه لوران جيني : "تحويل وتمثيـــل لعدة نصوص يقوم بها نص مركزي يحتفظ بريادة المعنى "[٣٤] ، ويكون هذا النص محكوما بدافع المحاكاة أو المعارضة وهو أبسط أنواع التناص/وقـــد يكون حوارا متبادلاً بين الذات الشاعرة وبين غيرها مـــن الـــذوات بـــهدف

تأكيدها أو نفيها وقد يعدلها حسب توجهات ذاته المتحاورة محكومة بأبعاد تجربته الخاصة وهذا جوهر التناص ، أو هو التناص في أغني صوره التي " تعد حركة مركبة في النص تنطوي على السلب أو الإيجاب وتؤكد علاقات المشابهة بالنصوص أو المخالفة القصدية لها "[٣٥] .

وبمقدار ما يحققه الشاعر في نصه من إضافة أو تعديل في المسارات الفكرية للنصوص المتفاعل معها يكون حظه من الإبداع والتجديد ؛ لأن جوهر الحداثة ليس في أطراح القديم ، بل هي أن يكون للتراث أثره الفعال في تكوين الرؤية الفنية والفكرية للشاعر الحديث ، وعلى حد تعبير جوته : " في كل فن تجد صلة نسب ، فإنك إذا رأيت فنانا كبيراً ، فلابد أنه وعي أحسن ما عند أسلافه وإن هذا هو الذي جعله عظيماً "[٣٦] .

كما أن تأثير العمل الأدبي مرهون بوجود " دلالات وقيم صادرة عن تجارب أخرى وقابله لأن تصهر مع الخصائص التي يقدمها العمل الفني"[٣٧]، لينتج عنها توجهات متباينة ، تؤكد وجود علاقة جماعية بين خطاب الذات الحاضر والخطابات الغائبة ، على مستوى الأفراد التركيب ، وعلى مستوى الشكل والمضمون .

ولقد تعددت علاقة قصائد الديوان مع بعض نصوص الموروث التي تفاعلت معها بدءاً من أبسط أنواع التناص وهو التضمين أو الاقتباس ، أو الإشارة التراثية ، والاستدعاءات التراثية للشخصيات والأحداث ، إلى أرحب من ذلك كعلاقات التقاطع أو التبديل أو الاختراق .

ولقد حظي الاقتباس القرآني بنصيب وافر من الحضور في قصائد الديوان ، وانسرب هذا الاقتباس في ثنايا القصائد وامتزج بنسيجها ، ليؤكد على دلالة معينة ، أو يعدل منها ، وقد يقيم دلالة بديلة ، وفي كل المستويات يأتي موافقاً لرؤية الذات الشاعرة .

ففي قصيدة " مدد "[٣٨] والتي يفتتح بها الشاعر " ديوانه مشيرا إلى عمق علاقته بالشعر ، ومؤكداً أن هذه العلاقة ليست علاقة عادية ، بل هي حالة من الهيام و " الجذب الصوفي " . ويستدعي الشاعر الآية القرآنية التي تنفي الشاعرية عن الرسول صلى الله عليه وسلم " وما علمناه الشعر ، وما ينبغي له " (يس : ٣٦) فالرسول صلى الله عليه وسلم يسعى لتبليغ الرسالة المكلف بها من الله تعالى ، بينما يسعى الشاعر في طلب الشعر ؛ لأنه وسيلته لتحقيق ذاته وأداء رسالته في الحياة :

قال الرب
وما علمناه الشعر

هام المجذوب وقال :
معذرة يـــا مـــولاي
علمني الشـــعر

وحينما تشتد به الغربة وتحاصره آلامها ، يتمني أن يصير نورسا ؛ يعود إلى وطنه لينعم فيه بالطمأنينة . ويستعير الشاعر ألفاظ الآية القرآنيـــة " فاكهة وأبا "ليؤكد هذا الإحساس:

أو أتجلى في النورس كي أبحر نحو النيل ، فيبتل جناحي فاكهة .
أبا

وحينما يتغني بوطنه يأتي إبداعه صادقاً ، يخرس ألســـنة مدّعـــي الوطنية . فيستحضر حادثة سيدنا موسى عليه السلام مع سحرة فرعون في دلالتها على انتصار الحق على الباطل : " فألقي موسى عصاه فإذا هي تلقـف ما يأفكون ". (الشعراء:٤٥) **وكما لم يسلم سيدنا موسى من تهمة الســـحر ، لم يسلم الشاعر من أذى قومه :**

أخذ حرفي ألقيه فيغدو حجرا يلقف ما أفكوا [٣٩]
لكن يرتـــد إلى ..... !

ويأتي " التضمين " للآية القرآنيـــة " إن الســـاعة آتيـــة لا ريـــب " (الحج:٧).في سياق خطاب الشاعر لوطنه مؤكداً قرب ساعة الخلاص مـــن الواقع الفاسد ، وإشراق غد أفضل :

هذا وطني فاكتب ما أمليه عليك
" إن الساعـــة آتيـــة لا ريب "
وإن القمر الثلجي سيغدو تفاحا كي يطعم جوع الحنطة والأرض المثمـــرة
بنخـــل الأشـــواق ، وزيتـــون الحـــزن المتقاســـم عبـــر حروفـــي

وتؤكد الذات صدق نبوءتها فتتقمص شخصية يوسف عليه الســـلام وما أوتيه من قدرة على تأويل الأحلام حين يشير إلى قوله تعالي "يا أبـــت إني رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين ".(يوسـف:٤) ليؤكد على تحقق الرؤية واجتماعه بأبويه والعيش فـــي حضـــن الوطـــن ، والتنعم بخيراته ، وهو ما يشير إليه(لو نغمض أعيننا إذ ملئت بالنيل ومـــا أدراك ؟!) . وتصرح الذات برؤيتها حيث تبصر الشمس وقد صارت حروفـــا والقمر أصواتا ، وصارت النجوم ظلا لقصائده التي يتغني بها في وطنـــه ، وكلهم سجود للوطن :

وافتح ما يتيسر من حلم أصابع وجدك كي ندخل في حضرة قدسك آه
لو نغمض أعيننا إذ ملئت بالنيل وما أدراك ؟ !

فيا أبتي إني أبصرت الشمس حروفا والقمر تشكل صوتا ونجوما
أضحت ظلا لحروفي فوق الأعتاب سجود لك يا وطني
فامنح جسدي في أرضك قبرا
لكن .. لا تدفن حرفي !!

وفي قصيدة " أقوال طفل فلسطيني "[٤٠] يدين الشاعر الموقف العربي المتخاذل ، ويسخر من انخداعه بمفاوضات العدو المراوغة ، فيستدعي شخصية الحجاج بن يوسف الثقفي ، ولكنه يسلب منه ما عرف عنه في التاريخ من بطشه بأعدائه ، حيث يظهر في الواقع العربي المعاصر حائرا مترددا ــ بعد أن اختلطت عليه مواقف الخداع والمراوغة وهو لا يدري إلى من يولي وجهه ليسانده في قضية وطنه ، ويتمثل الشاعر الآية الكريمة التي تكشف عن لجاج اليهود ومما حكاتهم العقيمة في حادثة البقرة في قوله تعالي : " *إن البقر تشابه علينا وإنا إن شاء الله لمهتدون* " (البقرة: ٧٠) . ولكنه يعرض بالموقف العربي المعاصر الذي تشابهت عليهم "الكعاب" والذي أصبح مشابها لموقف اليهود حين تشابه عليهم البقر . كما تتداخل الآية القرآنية في قوله تعالى : " فأينما تول وجهك فثمة وجه الله" إشارة إلى نفى الانقياد والإذعان لغير الله .

إن الحروف توعرت وتشايكت
وتلعثم الحجاج أية كعبة
إن الكعاب تشابهت
للشرق أو للغرب فانظر ثم وجه الله .

وبعد انخداع العرب بصلح مزيف مع عدوهم ، وتخليهم عن قيادة أمتهم إلى شاطئ الحق المنشود ، وتولى النصير عنهم ، لم يجد الصبي الفلسطيني ما يدافع به عن نفسه وعن حقه سوى الغضب الذي يتحول في يده إلى حجر يقذفه في وجه العدو :

الماء قد ترك السفينة عند أول مرفأ ومعنى ..
والعرب قد تركوا السفينة عند أول موجه ومضوا
يساقط الغضب الجني حجارة
كوني ثمار الأرض لي حجرا جنيا

وإذا كان الشاعر قد استدعى قوله تعالى : " وهزي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا " (مريم :٢٥) في دلالة الآية على العناية والرعاية للسيدة "مريم" عليها السلام ، فإنه يعدل مسار هذه الدلالة إلى

دلالة الفزع والقلق ، وذلك من خلال استبدال بعض ألفاظ الآية الكريمة بألفاظ من عنده، حيث يحل الغضب /الحجر محل (الرطب) ، كما يحل (الحجر) محل (الثمر) . ويأتي تمسك الطفل بالقوة من خلال استنهاضه للحجر ودعوته للمقاومة وتحذيره لأصحاب الحق من الخديعة . ويتمني الطفل أن يتحول كل شيء في بلاده إلى حجر حتى عظام أجداده ، فالوطن المسلوب لا يردّ إلا بالقوة . وينادي الشاعر الطفل الذي يحمل في يده حصوتين أن يرمي عدوه بواحدة ، ويرمي قومه بالأخرى ليوقظ حماسهم :

يا أيها الحجر المقدس في دمي قاوم ولا ترتد
ما نحن إلا ساسة والله كره السياسة منذ عهد مغاوية !
انبت قصائد شعرنا حجرا
أثمر نخيل بلادنا حجرا
كون نهود بناتنا حجرا
حول عظام جدودنا حجرا
وطن هوى الآن تبعثه الحجارة

.....

يا أيها الطفل الذي قد جاء يحمل حصوتين
اضرب عدوك بالحجر
أقذف شعوبك باللهب
الله قد رضي الغضب
الله قد فرض الغضب

وفي قصيدة " الأصوات والصدى "[٤١] يمتزج الخطاب القرآني بالخطاب الصوفي ، حيث يبدأ الشاعر معراجه الصوفي الذي يطوف فيه سماء الوطن بحثا عن حلمه ، ويختفي الشاعر في أعين الوطن بعيدا عن أعين العسس الليلي ، ثم يرتقي في معراجه حتى يبني لنفسه منتجعا للحزن ، فيرى " مقام الدهشة " ، ويؤمر بالتجرد وارتداء رقعة الوطن (شارته) ، لأنه بحضرته ، في إشارة إلى أمر الحق سبحانه وتعالى لسيدنا موسى بالتجرد من نعليه لأنه في حضرة الذات الإلهية بالواد المقدس في قوله تعالى : " *إني أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالوادي المقدس طوى* " (طه:١٢) . ثم وصوله إلى مقام أرفع ليتلقى ما يوحيه إليه الوطن في إشارة إلى المقام الذي وصل إليه الرسول الكريم في رحلة الإسراء والمعراج في قوله تعالى : " *ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى عندها جنة المأوى* " (النجم: ١٣-١٥) .

الصوت الثاني :

من خبأ هاتين العينين ؟ وكيف اختفتا عن كل عيون العسس
الليلي وهم يسترقون السمع
وهاأنذا موعود في عينيك
أتمشى تحت خيامك
أو أتجول بين الرئتين ،
وأبني منتجعا للحزن ، فذاك " مقام الدهشة " .
فأخلع نعليك ، تجرد
والبس رقعة ظلي
هذى " السدرة " ،
فأسمع ما يوحي

ويأتي تضمين آية الزلزلة " وأخرجت الأرض أثقالها " (الزلزلة:٢). إشارة إلى خلاص الذات من إسارها وتحقق حلمها ، بعد أن أضحت غماما وبرقا ، وزلزلت الأرض بأفكارها ، وأخرجت ما فيها من جماجم ، وما أن تنتظم الجماجم في مظاهرة معلنة الفرح بالانتصار وتحقق الحلم حتى يأتي الجنود العسس رمز قوى البطش فيسحقون هذا الحلم :

الفرحة :

فأدفن ما قد تبقي
هنا القبر
كانت رفاتي تنام
فأبصر جمجمتي غماما وبرقا
تزلزل زلزالها
تمزق أكفانها
... وأخرجت الأرض أثقالها "
تسير الجماجم جنبا لجنب
فتغدو الجماجم صفا ، صفوفا ..
ويأتي الجنود العسس
وما كان كان .. وما لم يكن قد يكون ..

الصدى :

ص ..... د ..... ي !!

وكما تعددت صور التناص مع الموروث في قصائد الديوان ، فقد تنوعت مستوياته وتحققت ــ كما سبق ــ على مستوى المفرد والتركيب والمضمون .واتخذت بعض صوره من الشكل إطارا لها ، فلقد جاء تناص قصيدة " اليوم الأول بعد القيامة "[٤٢] مع تجربة أبي العلاء المعري الفريدة في كتابه " الفصول والغايات في تمجيد الله والمواعظ "[٤٣] ، حيث سارت

القصيدة على النسق الذي سلكه المعرى في ترتيب مادة الكتاب التي توخى فيها الترتيب الأبجدي ، حيث يملي الفقرة (الفصل) على تلاميذه ثم يختمها بـ(غاية) التي هي بمثابة القافية من بيت الشعر ، ثم يملى التفسير الذي يمثل رغبة التلاميذ في توضيح ما خفي عليهم فهمه أو إدراكه ، ثم إذا انتهي من التفسير وأراد العودة إلى الإملاء مرة أخرى قال : " رجع " ، وهكذا . . وقد جاء الكتاب في سبعة فصول ، وبدأ بـ " الهمزة " حتى حرف " الخاء " . بينما جاءت القصيدة في فصلين : أولهما فصل غاياته "ألف" والآخر فصل غاياته "باء" .

ولقد جاء كتاب " الفصول والغايات " لأبي العلاء المعري صورة لعقل صاحبه في الاجتهاد للاتصال بالملأ الأعلى ، ومحاولة التعرف على كنهه ، والإلمام بحكمته وأسراره عن طريق العقل ، وبلغت ثقته بالعقل والتعظيم من شأنه أنه قال بعصمته من الخطأ[٤٤] ، كما أشار إلى مسئولية العقل عن تدبير أمر النفس والجسم وتجنيبها طبيعة الشر . كما بث المعري في كتابه آراءه الفلسفية عن الجبر ، والقدر ، وقدرة الله تعالى وسعتها لكل شيء ممكن في رأي العقل ، وعلو حكمة الخالق عن إدراك العقل البشري لها .[٤٥]

بينما اعتمد الشاعر محمد أبو الفضل بدران في بناء قصيدته على المنهج الصوفي الذي يتكئ على الوجدان والحدس الصوفي في إدراك المعاني الحقيقية للأشياء في الواقع بعد ربطها بحركة الذات الداخلية وحركتها في الواقع الخارجي ، وأمكنه من خلال هذا المنهج التوحيد بين الشعر والتصوف .

ولكي تتمكن الذات من إدراك العالم بشكل كلي ، فقد اصطنعت لنفسها ــ عن طريق ملكة الرؤى والكشف الصوفية ــ قيامة كونية ، أو "معراجا صوفيا" تلوذ به من وجودها الحسي بوصفه وجودا غريبا وغير أصيل ، وتلجأ فيه إلى الحضرة الإلهية والفناء فيها بوصفها الوجود الحق ، أو بوصفها ــ على حد تعبير الصوفية ــ " الوطن الأصلي "[٤٦] . شأنه في ذلك شأن بعض متصوفة الإسلام ممن تأثروا بالغنوصية كمحي الدين بن عربي وغيره من متصوفة المسلمين . لذلك لجأت الذات إلى تأمل الوجود بحس صوفي بغية الكشف عن جوهر الحقيقة .

وإذا كانت الذات قد عاشت تجاربها في الزمن الخارجي المادي أو الزمن (الفيزيقي) ، فإنها في قصيدة " ذكريات اليوم الأول بعد القيامة " تعيش تجربة في الزمن الداخلي (الباطني) ، وهو زمن لا يخضع إلا لقانون التجربة الروحية الصوفية . وفيها تدخل الذات في حالة تشبه حالة "المحو" الصوفية ، حيث تغيب الذات عن وعيها ، وتنتقل عبر (إغماضه العين) إلى ما يشبه (القيامة) أو قيامة الرؤية ، وفيها يتراءى للذات أنها

تحولت إلى نبات ينمو في الأرض حتى يزهر ويثمر ، وليست الزهرة سوى (الروح) أو (الهو) التي تستطيع أن تطالع هذا الكون عن كثب ؛ لتستجلي أسراره ، أما الجسد (المادة) أو (الأنا) فيبقي رهين الطين :

(المقبرة) :

وأغمضت عيني فما كان لي أن أري ما كان لي أن أفتش عن أحرف داميات تغطين بالصمت أو بالذي ، ذاك يدعى الظلام وما كان إلا الظلال التي طاوعتني وجاءت تودع ما لا يكون ، وأدنيت منها وألفيت أني تحولت للطين نبتا ، وأدخلت في الساق حتى تطاول هذا النبات المسربل بالشوك على أقاوم تلك الحجارة أو أقتفي ظلها .
ويخرج نبتي ثمارا فأبصر هذا المدى ، ها أنا وردة أستطيع الغناء كأني قريب من الأرض ، سيان عندي الذي كان أو ذاك من كنته ، ولم أدركم عمر هذا النبات وقد حوصل الماء فيه الفناء فأخرج " هو " ويبقي " أنا " !!

وبعد أن تخلصت الذات من أوشاب المادية ، وخلعت عنها الأسماء المزيفة ، بدأت التحليق في عالم الروح استعداد للدخول في الحضرة الإلهية ، لتشهد حياة الأبدية التي تنتفي فيها الثنائية التي تقلقها . ومن ثم يصبح قبول الذات للموت والفناء في حضرة الذات الإلهية ميلادا حقيقيا لها ، أو هو الوجود الحقيقي لها :

تفسير :

لا شيء هنالك موجود إلا الواجد
فتواجد حتى توجد إن شاء
واخلع عنك الأسماء فكل الأسماء مزيفة
من منا سمى نفسه ؟
وادخل في الحضرة كي تحضر حين يراد وجودك فيها لا تلتمس الأعذار
فموتك هذا عذر ليس بمقبول
إن كنت تريد الموت فمت
لكن إن كنا نحن نريدك ميتا عشت
الموت وجود
ووجودك لا يوجد إلا عند موات الموت

وتتزاحم الأسئلة داخل الذات حول حقيقة وجودها ، وحول كنه الأبدية التي لا يمكن إدراكها إلا من خلال عنصري الفناء والخلود ، وهما جوهر الوجود . وتجتمع الأضداد في مخيلة الذات ، وتتزاحم الأسئلة ،

فيصبح المدى سؤالاً ، ويصير الورى أسئلة تبحث عن إجابة ، ولأنها أسئلة ميتافيزيقية فإن الذات تعجز عن إدراك كنهها فضلا عن الإجابة عنها :

رجـــع :
أهـــذا أنـــا " أم " "هو" ؟ وكان الظلام يخيط الجماجم بالأرض ، يربط هذى العيـــون بشتى السلاسل ، من جـــاء بي ؟ تـــذكرت أني " أنـــا " وأن البكاء الذي كان من أجل أن..... هو الطيـــن يلتف حولي ويبني له سرمدا فاخلع الآن كل الوجود وكن سيدا ، أنت صرت بقاء الفناء ، وما أنت إلا فناء البقاء وذاك الوجـــود ابتـــلاء فمن كـــان أو سيكون ؟ وسيان عندي زمان السؤال ومعنى الجـــواب ولكن قلبي يؤكـــد أن المـــدى صـــار ســـؤالا وأن الورى أسئلة ؟! ألست ســـؤالا ؟ ..... بلي ..... لا !! "

" غايـــــة "

ومن خلال مجموعة الصور الشعرية التي يشـــكلها الخيـــال الحـــر ترسم الذات عالم اللاوعي لديها ، ثم تتأمله بحس صوفي عرفـــاني يعتمـــد على الحدس والكشف كي تدرك الحقيقـــة الكامنـــة وراء الأشـــياء . ففـــي "الزلزلة" تطالعنا صور (النخلة التي تتحول شباكا ، والشباك الـــذي يصـــير فتاتا ، وأسراب الدود التي تتلاقي فوق الجثث المـــوءودة (ظلمـــا) مشـــكلة أسرابا من أمعاء وصدور حري) ثم صـــورة الحكـــام وهـــم يتصـــارعون ويتخاصمون فيما بينهم ، ثم صراعهم وتخاصمهم مع الأرض التي يملؤنـــها ظلما وجورا :

الزلزلـــــة :

رجـــــع :

تتحـــول تلك النخلة شباكا ويصيـــر الشبـــاك فتـــاة ، تسألني عما إن كـــــان فـــؤادي يهواها أو أنـــي ؟ تتلاقى أســـراب الـــدود المنبطح المترامي فـــوق الجثث المـــوءودة إذ سئلت أو تشكل أسرابا من أمعـــاء وصـــــدور حـــري نصطف صفوفا يقتطف الواحـــد منا تلـــو الآخـــر ما يعنيـــه ولكن لم يختلـــط الحابـــل بالنابـــل بل يفترقان ويصطف الحكام " ! " صفوفا يفقـــأ كـــل منـــهم عيـــن الآخـــر ، تتدلـــى لكن الأرض .
تعيـــد الأعيـــن ثانية إذ يفصل ربـــك بين الأشياء فلا يتلاقي اثنـــان ولو قـــد كانا من قبل التقيـــا واختلطا وامتزجـــا وانتهيـــا ولذلك تتبـــارى الأرض مع الحكام ، ولـــن يصطلحـــا !!

" غايـــــة "

ويأتي " التفسير " ليؤكد أن رؤى الذات التي تراءت لها تمتد جذورها في تربة المستقبل وتنمو أطرافها لتتخلق إنسانا يقوض أركان الفساد ويزلزل ممالكه .

ولا شيء يدعي السكون
أما للسكون صدي ؟
وقد كنت طينا فكن
لذا ينبت الطين أطراف هذى الرؤى
وتهتز أوراق تلك الغصون فتنمو العيون ، الأصابع والمشيمة
فتعذو الأرض رياحا
سأرقب هذى السماء ، ولكنها قد غدت جثة هامدة
تهشم وجه السماء
وتنزف حزنا كثيفا
أهرول علىّ .....
فتخبرني أنها الزلزلة !

وتحلق الذات الشاعرة في ملكوت الحرف الشعر ، فمنذ أن كانت جنينا تخلقت فكانت شعرا ، ومن ثم أصبح الشعر مراياها ومملكتها . وفي هذا الملكوت تتلاطم معاني الحرف الشعر ، وتتحرر من محدوديتها ، فلا يحدها معانيها شاطئ . وتحلق الذات في هذا الملكوت لترسم نجومه شعرا ونوارس ، وشياطين تتابع في صورة ملاك عصيّ . وإذا كان هذا الملاك العصي قد طرد من مملكته كما طرد " آدم " من جنة الخلد ، فإن (شيطان الشعر) يبقي بأمر صاحبه ، ليمارس سحر الكلام .

وتصرح الذات في أمر القدر بأنه لولا إرادة الله لما عصي آدم ربه ولأعفي إبليس من أمر السجود ، ولكن الله غالب على أمره ، ويأتي كلام الذات في أمر القدر على غرار تصريح بعض المنصوفة حينما قالوا : " لو أراد الله ألا يعصي ، ما خلق إبليس " [٤٧] .

المكان :

رجع :

هل كنت جنينا أو أني حين تخلقت تشكلت فكنت الشعر ، وكان الشعر مراياي ومملكتي ، لكن الحرف تجرد من معناه ، فكان المعنى من غير حروف ، والحرف يلاطم موج الحرف فيسألني عن شاطئ تلك الكلمات فاسأله عن معناه ؟ يفكر ، لكن الحرف يرى ما كان وما لم . وأنا مازال الموج يسامرني في الأرض وفي خارطة قد كُتبت بظلال الشيء ، وكانت دائرة في ملكوت الحرف ، فآخذ وجعي ، أتكئ على ظلىّ المتقطع والمسجى ، فيقاوم ثقلي ، لكني أتجول

في النجـم وأرسمـه شعرا ونوارس قـددا ، وشياطيـن تـوالـت في شكـل مـلاك قـد عصـى فأسقط من طـور التكويـن لكـن الشيطـان تلقـي من آمـره أن يبقـي ، أن يتـزاوج من تـلك الأنثى " ؟ ليخلـف أبنـاء المـردة إذ يرقـون السـحر علـى آنيـة ثكلى ، ويُجاء بإبليس ليسجـد في الأخـرى ، ما أحـرى آدم لـو شكر الـرب وأعفـي إبليس وعنـه عفـا . لكن القـدر تقـدر والأسبـاب !!

وتتجه الذات نحو تشكيل الصور التي تعتمد على التأويل البـاطني العرفاني نظرا لامتلائها بالإشارات والرموز والاستدعاءات التراثية الدينيـة والصوفية ، لتقدم رؤية حدسية لعالم الأشياء ، كما تتخـذ مـن المقامـات الصوفية مرتكزا للإدراك الكلي لعالمها الحضوري والباطني .

ففي مشهد " الجمع " أو " الحشر " تجمع طبقـات الأرض براحـة الأمر الإلهي (كن) وتتزاحم أحلام الموتى وتتساقط ، وتتوالد فتكون ظـلا يصير صراطا يتعثر عليه الحلم ، ولا ينجو إلا من كان مريدا أو مشـتاقا ، وتنجو الذات لأنها من مريدي الشعر . وتمتلئ الـذات مددا / نـورا تطـالع بـه الكون وتستجلي به أشياءه ، وتدخل في مقام الجذب الصوفي ، وبعـد الجذبة العليا تغيب الذات عن وعيها لتجد نفسها في صحراء الوجد ، لكنـها تنأس نارا ، فتحاول أن تأتي منها بشاهد أو تتخذها دليل هداية ، ولكن دون جدوى وحينما تعاين الحقيقة تصاب بالدهشة ، وتعود دون ذاتها ودون النار ، ولا تجد أحدا سواها يحلّق في ملكوت الشعر ، ثم تقـف علـى الأعتـاب متسربلة بالشوق للقاء المحبوب / الشعر :

رجـــع :

أيـن تكون ؟ وقـد جُمعـت طبقـات الأرض براحـة (كن) أمـا فعـل " يكون " فكـان وجـودا ، تتداخـل ، تتمـزق إربـا ، تتـزاحف أحـلام الموتى ، تتدحرج تتسـاقط ، تتوالـد وتكـون ظـلا ، فيكون صراطـا يتـق فيـه الحلم ، وينجـو المشتـاق لأن المشتـاق مريـد ، والجمجمة امتـلأت مددا ، آخذ مددي ، أفتله فيصيـر مـدى ، ويصيـر العالم محصـن سـدي ، نتناشـد في الخلوة نتجاذب جذبتنـا العليـا ، نتأنس نـارا في البيـر ، لعلـى آتيكم منهـا " أو أجـد على النـار هـدى " لكنى أرجـع من بعـد غيـاب دون النـار ودون الذات ، فلا أجد الآن سـواي يخلـق في الملكـوت ، أحملق في " الـذات " ومـا أحصـي ذاتي عـددا ، فمتى ألقـاه لأنـي أتسـربل مـن شـوق وعتـاب ، وأنا منذ وجودي ألزم ذاك البـاب" .

وتستحضر الذات في هذه الحالة قوله تعالى فـي سـياق خطابـه لسيدنا موسى عليه السلام بتشريفه واختياره لتبليغ الرسالة : " *وهل أتـاك حديث موسى ، إذ رأي نارا فقال لأهله امكثوا إني آنست نارا لعلى آتيكم منها*

بقبس أو أجد على النار هدى ، فلما أتاها نودي يا موسى إني أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالوادي المقدس طوى ، وأنا اخترتك فاستمع لما يوحي " (طه ١٠-١٢) .

وتصبح الصور في هذه الحالة " ليست مجرد نسخ للتجربة وإنما إعادة خلق مثالي لها وواسطة لرؤية ما وراء الإدراك إلى داخل الأشياء أي قوة إدراك خاص وجمالية جديدة "[٤٨] .

المفردات وثراء الدلالة :

تعد دراسة مفردات المعجم الشعري وتنوعاته الدلالية لشاعر ما السبيل الأساسي لإدراك التشكيل الجمالي والمعنى الرمزي الذي تشير إليه هذه المفردات ،كما أنها تمهد الطريق إلى إدراك ما في النص من أبنية وعلاقات تشكل في تفاعلها الكلي بنية النص " فما النص إلا ضرب من الكشف عن دلالات الوجود ورابطة بين أشكال الوجود ذات نسيج لغوي، وهو في الوقت ذاته معمل رمزي ، نخفق متى أفلت منا في تفسير النص واكتناه معناه"(٤٩)

والكلمة في النص الأدبي " ليست وحدة معنوية مفردة ،وإنما هي إمكانية واسعة للمعاني ".تسمح للشاعر إن يكشف عن دلالات غير واضحة في أشياء الواقع التي نراها فيما حولنا ، "وهذا العنصر الكشفي " مميز للفن. وقد قيل إن الفن " نقطة التقاء الظاهرة والدلالة " (٥٠)

ويتيح التنوع الدلالي للمفردات للشاعر " إمكانيات واسعة لـ" الإلماع " المضاعف للمواقف العقلية "(٥١) وتمكنه من أن " يصف الأشياء أو يشير إليها بكلمات تُشرب الشيء في الوقت نفسه بالدلالة "(٥٢) ولا يمكن للكلمة أن تحقق هذا الثراء الدلالي أو أن تشف عن دلالتها الرامزة ما لم تكن قادرة على تجاوز دلالتها المعجمية ؛ وذلك من خلال تفاعلها مع سياقات النص المختلفة والتي تشكل بنية النص ،وتبلور في الوقت ذاته رؤية الشاعر ، وتكشف عن أبعاد تجربته المتنوعة ، ومن ثم التعرف على عالمه الخاص.ومن ناحية أخرى فإن انتزاع الشاعر للكلمة من محدوديتها القاموسية ووضعها في إيقاع جديد يرد لها بعض جديتها وسحرها ،وهو ما يؤكده سارتر بقوله:" الشاعر يخدم الكلمة قبل أن يستخدمها " لأنه يثريها بهذه الإضافات الجديدة.(٥٣)

والراصد لاستخدام محمد أبو الفضل بدران لمفرداته في قصائد الديوان يجد أنه يتخطى بالمفردات اللغوية من كونها مفردة ذات دلالة قاموسية ثابتة إلى كونها طاقة مشعة بالدلالات ،وذلك من خلال سياقات متنوعة تخلق حول هذه المفردة شبكة من الترابطات والدلالات غير

المحدودة. كما يتيح هذا الاستخدام الرامز للمفردة أمام النص دلالات أرحب واحتمالات أوسع .

فعلى سبيل المثال ترددت كلمة (الظل)[٥٤] في الديوان أكثر من أربعين مرة، وقد تجاوز بها الشاعر دلالتها المعجمية التي تربطها بالوجود الحسي لأصل الشيء ؛ ليشكل بها عالم الذات في تعاملها مع الواقع الذي تعايشه من جهة ، وفي تفاعلها مع اللغة من جهة أخرى ، بعد أن يحملها بإشارات وارتباطات تجعلها تحلّق في فضاء النص محيلة إلى دلالات عدة. يقول الشاعر في قصيدة " الحروف "[٥٥] :

فظلي لا يعرف للنوم فؤادا منذ أغلق باب الهرم وقلبي لؤلؤة نائمة فيه ،
ومهما سافرت فإني ذاك النورس ، من إذ تسأله عن عش فيؤلف وطنا
من أسفار التكوين وبيني من ظلي وطنا فانام بظلي

.....

ولكن هل ما زلت كما كنت تؤلف حرفا
يغدو عسسنا كي يكتب ما انسجه حبا لعيونك
يتقاسم ظلي ، يتلصص عن حلمي

.....

فيا أبتي :إني أبصرت الشمس حروفا والقمر تشكل صوتا ونجوما
أضحت ظلا لحروفي فوق الأعتاب سجودا لك يا وطني.

فكلمة (الظل) ذو دلالة مختلفة عن دلالتها القاموسية في إشارتها إلى الارتباط المادي للظل بأصل الشيء ، ولكنها في هذه القصيدة تتجاوز هذه الدلالة الضيقة إلى دلالة أرحب تتجرد فيها من ماديتها الثابتة لتشير إلى كيان كلي غير محدد الأبعاد ، فهي تشير إلى (الهوية) وقد تشير إلى دلالة عامة وشاملة تتسع لمعاني القيم الثقافية والاجتماعية والإبداعية . بل إن دلالة لفظة (الظل) تتحول من خلال السياق الذي ترد فيه إلى المعنى المقابل ، حيث تشير إلى دلالة الضياء والإشراق في قول الشاعر :

فيـــا أبتِ :إني أبصرت الشمس حروفـــا والقمر تشكل صوتاً ونجومـــا
أصبحت ظـــلاً لحروفـــي فـــوق الأعتـــاب سجـــوداً لك يـــا وطنـــــي
فامنح جسدي في أرضك قبرا
لكن .. لا تـــــدفن حرفي !!

ويدخل الشاعر لفظة (الظل) في منطقة التأويل العاطفي العرفـــاني التي ترتبط باللاوعي الذي يؤدي بدوره إلى اتساع الدلالة ، ليصبح ارتـــداء الذات لرقعة (الظل) دالاً على الصفاء الروحي والارتقاء بهاء من " مقـــام الدهشة " الصوفي إلى مقام الدهشة تستمع فيه إلى وحي الوطن :

وأبني منتجعاً للحزن ، فذاك " مقام الدهشة ".
فاخلع نعليك ، تجرد
والبس رقعـــة ظلي
هذه " الســـــدرة "،
فاسمع ما يوحـــي !

وتأتي لفظة (الظل) مرتبطة بدلالة الحماية والحفظ ولكنها ليســـت الحماية الحسية ، بل الحماية المعنوية والنفسية ، فيصبح (ظـــل الوطـــن) بمثابة التعويذة التي تحفظ الشاعر من الوقوع في الخطيئة:

تعبث فـــي خارطـــة الليـــل وتوقظنـــي من حلمـــي:
– كيف ستقضي ليلتك اليوم ؟ أصمت ... تتحسس جسدي
تتلاقى عينانـــا
متـــد يـــدانـــا
همت شفتانا !
يبعث ظل الوطن فننفصل
– كيف ستقضى ... ؟
يهتز الظل القابع في عيني فابتعد

وفي قصيدة " الأصوات والصدى "[٥٦] يرتفع (الظل) إلى مســـتوى الدلالة الرمزية ، ليشير (الظل) و (الظلال) معها إلى حالة من (الضبابيـــة)

التي تعتري الذات بعد أن تراكمت عليها ظلال الغربة والحنين إلى الوطن البعيد:

لماذا يختفي الظل في الليل
والشمس لا تشرق إلا في الظلام ؟
الظلال موجودة في الظلام
حينها يلتقي الظل بالظل
والصوت في الليل عبر الصدى بارز الظل

ومن الألفاظ التي ارتفعت دلالتها إلى مستوى الرمز لفظة (الحرف)[٥٧] ، (الحروف) التي ترددت في الديوان أكثر من (ستين مرة) ، وقد استمدت رمزيتها من عدة عوامل : أولها استخدام الشاعر لها بكثرة كمكون من مكونات اللغة الشعرية والعالم التصوري والخيالي للذات . والآخر : التعامل مع (الحرف) أو (الحروف) كذوات لها كيانها الخاص ومستقلة عن معانيها :

الحرف الثاني :

هاأنذا فوق " الراين " ملتحفا بالحزن ، أغني في أغلفة الصمت الثكلي
أجمع شمل حروف اللغة ،
وفوق الرمل _ صبيا _ أبني منها بيتا
يأتيني الموج فيسرق حرفين ،
فأركض إثر الموج فيلقي ما سرق.
أضمد جرح الحرفين وأرجع لكن ألفى ما قد جمعت تلاشى
إذ حفرت كل حروفي سردابا نحو النيل ، وتمضي
ألقي بالحرفين إلى الموج وأغدو حرفا

الحرف الثالث :

ماذا يتبقى في ذاكرتي غير حروف شتى
تتجمع كي تتلاقى وتؤلف من هيكلها اسما لحبيبي
أبصره تتجاذب أطراف الحرف ، ونلعب فوق حروف الصمت ،
نؤلف حرفا لم يكتب في لغة بعد
فيمدد ذاك الحرف المخلوق وينجب في الأرض حروفا

آخـــذ حرفـــي ألقيـــه فيغـدو حجـراً يلقف مـــا أفكـــوا
لكـــن يرتـــد إلـــى ... !

الحرف الـــرابع :

هذا وطني فاكتب ما أمليه عليك
" إن الساعـــة آتيـــة لا ريب "
وإن القمر الثلجي سيغدو تفاحا كي يطعم جوع الحنطة ، والأرض المثمرة
بنخـــل الأشـــواق وزيتـــون الحـــزن المتقاســـم عبـــر حروفـــي
مـــا زلـــت أحبـــك يـــا وطني
لكن هـــل مـــا زلـــت كمـــا كنت تـــؤلف حرفـــا يغـــدو عســـا
فيا أبتي : إني أبصرت الشمس حروفا والقمر تشـــكل صوتـــا ونجومـــا
أضحـــت ظـــلا لحروفـــي فـــوق الأعتـــاب سجـــودا لك يـــا وطنـــي
فامنح جســـدي في أرضـــك قبرا
لكـــن ... لا تـــدفـــن حـــرفي.

فالشاعر ينتقل بالحرف باعتباره جزءاً من الكلمة ، كمـــا يتجـــاوز دلالتـــه المجازية المرسلة في دلالة الجزء على الكل ، إلى الدلالة الرمزيـــة وهـــي دلالة كلية ومتنوعة في نفس الوقت ، ليصير الحرف رمزاً لعملية الإبـــداع وأثرها في النفس (يتمدد ذاك الحرف المخلوق وينجب في الأرض حروفا).
وقد يصبح رمزاً للوطن الذي يبنيه الشاعر من الحروف ليبعثه في ذاكرتـــه.
كما يصبح الحرف رمزاً لعبقرية الشاعر فـــي صياغـــة عبارتـــه الشـــعرية وأحكامها وتفوقه على أقرانه حتى تصبح قصيدته (حجراً يلقف ما أفكوا).

وهكذا تصبح تعددية الدلالة سمة لشعرية اللغة فـــي الشـــعر ، لأن مهمة الشعر كما يقول ريكور :" هي شحذ الكلمات لإنتاج أكبر قـــدر ممكـــن من الدلالات ، ومن ثم فالشعر لا يسعى إلـــى تجـــاهل هـــذه التعدديـــة " أو استبعادها ، إنما يسعى بالأحرى إلى الاحتفاء بها وإبـــراز دلالتـــها وشـــحذ طاقتها ، وذلك بغية أن يستعيد للغة قدرتها وطاقتها على الإدلال ".(٥٨)

الهوامش :

* محمد أبو الفضل بدران : " ديوان النوارس تحكي غربتها " دار الغد للنشر والإعلان ، القاهرة .

١ــ هانز ميرهوف : الزمن في الأدب ، ترجمة د. أسعد مرزوق ، مراجعة العوض الوكيل ، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر – القاهرة – نيويورك ،١٩٧٢ ، ص٣٣ .

٢ــ الديوان : قصيدة " بيني وبينك يا وطن " ، ص٩ .

٣ــ د. محمد عبد المطلب : الشعر والشعراء ، كتاب الشعر ، الشركة المصرية العالمية للنشر – لونجمان – الطبعة الأولى ٢٠٠٢ ، القاهرة ، ص٦٢ .

٤ــ الديوان : قصيدة " الحروف " ، ص١١ .

٥ــ الديوان : قصيدة الحروف .

٦ــ الديوان : قصيدة الحروف .

٧ــ ،، : ،، .

٨ــ ،، : ،، النوارس ص٤٧ .

٩ــ ،، : ،، النوارس .

١٠ــ ،، : ،، " اللعنات " ، ص٧٧ .

١١ــ ،، : ،، " الجبال " ص٢٧ .

١٢ــ يقصد الشاعر بابن يوسف الرئيس العراقي " صدام حسين " وما كان يرتكبه ضد شعبه من ظلم واستبداد .

١٣ــ الديوان : قصيدة " الرهان " ص٩٥ .

١٤ــ د. عز الدين إسماعيل : حوارات نقدية الجمعية المصرية للنقد الأدبي : الكتاب الأول : قراءة في ديوان أبجدية الروح : المكتب المصري لتوزيع المطبوعات ، ص١٦٢ .

١٥ــ الديوان ص٢٣ .

١٦ــ ،، : قصيدة " من ذاكرة المدن " ، ص٥٧ .

١٧ــ ،، : ص٥٥ .

١٨ــ ،، : قصيدة " برلين " ص٨٥ .

١٩ــ ،، : ص٣٥ .

٢٠ــ ،، : ص٩ .

٢١ــ ،، : قصيدة " الوقت " ص٢١ .

٢٢ــ **هانــز ميرهوف** : الزمن في الأدب ، ص٨٨ .

٢٣ــ **نيقولاي برديائف** : العزلة والمجتمع ، ترجمة فؤاد كامل ، ومراجعة علـــى أدهم ، دار الشئون الثقافية العامة ، الطبعة الثانية ، بغداد ١٩٨٦ ، ص١٣٦ .

٢٤ــ **المصدر السابق** ، ص١٢٣ .

٢٥ــ **هانز ميرهوف** : الزمن في الأدب ، ص٦١ ، وانظر كتاب العزلة والمجتمـع ص١٢٥ .

٢٦ــ **د. عاطف جودة نصر** : النص الشعري ومشكلات التفسير ، مكتبة الشـباب ، القاهرة ، ص٧٩ .

٢٧ــ **هانز ميرهوف** : الزمن في الأدب ، ص٨١ .

٢٨ــ **الديوان** : قصيدة الأرواح ، ص٩٧ .

٢٩ــ **د. أحمد أبو زيد** : الرمز والأسطورة والبناء الاجتماعي ، مجلة عالم الفكر ، مج١٦ عدد ٣ أكتوبر نوفمبر ديسمبر ١٩٨٥ ، ص٢٠ .

٣٠ــ **الزمن في الأدب** ، ص٨١ .

٣١ــ **المصدر السابق نفسه** ، ص٨٢ .

٣٢ــ **الديوان** : " قصيد الأرواح " ، ص٩٧.

٣٣ــ ،، : ، ص٦٧ .

٣٤ــ **مارك أنجينو وآخرون** : آفاق التناصية ، المفهوم والمنظور ، ترجمة محمـــد خير البقاعي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٩٨ ، ص٧٥ .

٣٥ــ **د. جابر عصفور** : " الشعر في منتصف الوقت " مجلة الإبداع عـــدد يوليـــو ١٩٩١ ، ص٦١ .

٣٦ــ **أحمد عبد المعطي حجازي** : قصيدة لا " قراءة في شعر التمرد والخروج " ، مركز الأهرام للترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٨٩ ، ص٩ .

٣٧ــ **تزفتان تودروف ، رولان بارت وآخرون** : في أصول الخطاب النقدي الجديد ، ترجمة أحمد المدني ، دار الشئون الثقافية العامة ، الطبعة الثانية بغداد ، ١٩٨٩ ، ص٨٤ .

٣٨ــ **الديـــوان** : ص٧.

٣٩ــ الديوان : قصيدة ص١١

٤٠ــ الديوان : ص١٧ .

٤١ــ الديوان : ص٤٩ .

٤٢ــ الديوان : ص٦١ .

٤٣ــ أبو العلا أحمد بن عبد الله بن سليمان المعري : الفصول والغايات في تمجيد الله والمواعظ ، ضبط وتفسير وشرح / محمود حسن زناتي ، الجزء الأول ، مطبعة حجازي ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٣٨ .

٤٤ــ د. طه حسين مع أبو العلاء في سجنه،دار المعارف القاهرة ، ص١٣، ١٨.

٤٥ــ المصدر السابق ، ص٢١١ .

٤٦ــ د. محمود رجب : " الاغتراب " منشأة المعارف بالإسكندرية ، ط١ ، ص٨٠.

٤٧ــ د. محمد كمال جعفر : في التصوف ، القاهرة ، ص٢٨٤ .

٤٨ــ جاكوب كورك : اللغة في الأدب الحديث ، الحداثة والتجريب ، ترجمة ليون يوسف وعزيز عما نوبل ، دار المأمون ، بغداد ١٩٨٩ ، ص٢٤١ .

٤٩ــ د. عاطف جودة نصر : النص الشعر ومشكلات التفسير ، ص٢١٧ ، وانظر كتاب " في نظرية الأدب مقالات ودراسات " تأليف ابش وفوكما ، فان ديك ، جان كوين ، كيبدى فارتما ، جان ستار وبانسكي ، ترجمة وإعداد محمد العمري ، مؤسسة اليمامة الصحفية ، العدد ٣٨ فبراير ١٩٩٧ ، ص٧٦ .

٥٠ــ ونفرد نوتني : لغة الشعراء ، ترجمة د. عيسى العاكوب ، د. خليفة العزابي ، معهد الاتحاد العربي ، الطبعة الأولى ، بيروت ١٩٩٦ ، ص٢٠٠ .

٥١ــ المرجع السابق ، ص١٩٩ .

٥٢ــ المرجع السابق ، نفس الصفحة .

٥٣ــ د. صبري حافظ :استشراف الشعر : دراسات أولى في نقد الشعر العربي الحديث ، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ١٩٨٥، ص٣٨ .

٥٤ــ انظر قصائد : بيني وبينك يا وطن ، الحروف ، النوارس ، الأصوات والصدي ، مارينا ، ذكريات ، اليوم الأول بعد القيامة ، وجوه .

٥٥ــ ،، ،، ،، ، ص١١ .

٥٦ــ ،، ،، ،، ، ص٤٩ .

٥٧ــ **انظر قصائد :** بيني وبينك يا وطن ، الحروف ، أقـــوال طفـــل فلســـطيني ، الوقف على أطلال أوربا ، ماذا سنكتب في قصيدتنا ، نحوت ، نقوش على جـــذوع الغابة ، اللعنات ، وجوه .

٥٨ــ **د. عبد الرحمن محمد القعود :** الإبهام في شعر الحداثة العوامل والمظـــاهر وآليات التأويل ، سلسلة عالم المعرفة العدد ٢٧٩، الكويت ٢٠٠٢ ، ص٢٢٤ .